الباب الثاني

مع بلاغة القرآن
في دعوته الى أهدافه

- البلاغة في الدعوة الى العقائد
- البلاغة في الدعوة الى العبادات
- البلاغة في الدعوة الى المعاملات

الفصـــل الأول

البلاغة فى الدعــوة الى العقائد

● **نقطة البدء فى طريق الدعوة :**

الومضة الأولى التى انبعثت من مشكاة الوحى الالهى ، واستقبلها قلب المصطفى ﷺ ، حددت نقطة البدء فى طريق الدعوة الى الدين الجديد · تلك هى قوله جل وعلا :

« يا أيها المدثر · قم فأنــذر · وربك فكبر · وثيابك فطهر · والرجــز فاهجــر · ولا تمنن تستكثر · ولربك فاصبر » (١) ·

جاء فى الكشاف : « وقيل هى أول سورة نزلت · وروى جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ : « كنت على جبل حراء فنوديت : يا محمد أنك رسول الله ، فنظرت عن يمينى ويسارى فلم أر شيئا · فنظرت فوقى فرأيت شيئا · وفى رواية عائشة فنظرت فوقى فاذا به على عرش بين السماء والأرض ــ يعنى الملك الذى ناداه ــ فرعبت ورجعت الى خديجة فقلت : دثرونى دثرونى ، فنزل جبريل وقال : « **يا أيها المدثر** » · وعن الزهرى : « أول ما نزل سورة : « **اقرأ باسم ربك** » · الى قوله : « **ما لم يعلم** » (٢) · فحزن رسول الله ﷺ ، وجعل يعلو شواهق الجبال ، فأتاه جبريل فقال : انك نبى الله ، فرجع الى خديجة وقال : دثرونى وصبوا على ماء باردا فنزل : « **يا أيها المدثر** »(٣) ·

وسواء أكان أول سورة « العلق » هــو أول ما نزل من القرآن الكريم أم كان ذلك أول ســورة المدثر ، فان أول ســورة المدثر يمثل نقطة البداية للدعوة الاسلامية · أما أول سورة العلق فهو خطاب يتعلق بالرسول ﷺ ·

---

(١) المدثر : ١ ــ ٧ · (٢) العــلق : ١ ــ ٥

(٣) تفسير الكشــاف · ص ١٨٠ ·

وعلى ذلك فان الانذار هو نقطة البدء ، وهو الصيحة الأولى التى تنبه للخطر وتحذر منه · انه انذار بالخطر الداهم الذى ينتظر البشرية كلها اذا هى لم تحول مسيرتها وتتجه الى الصراط المستقيم ، صراط الله الذى له ما فى السموات والأرض ، انه الانذار بيوم القيامة وما فيه من أهوال تترصد المجرمين ·

والبدء بالانذار بيوم القيامة هو الأسلوب الأمثل فى الدعوة ، لأنه يضع كل عاقل مهما كانت عقيدته أو اتجاهاته ، أمام وضع لابد له من أن يشغل نفسه به ويوليه كل اهتمامه ، ولا يمكنه تجاهله وصرف النظر عنه · ذلك لأن الانسان بفطرته لا يملك أمام الخطر ـ ولو كان محتملا ـ الا أن يأخذ بالأحوط ، ويسارع الى الأسباب التى تدفعه عنه · ولا يملك عاقل ـ اذا أخبره انسان بأن العدو أمام بابه وعليه أن يتسلح له عند خروجه ـ الا أن يأخذ تحذيره مأخذ الجد ويستعد لاحتمال الصدق فيه ·

ولقد صور الرسول ﷺ ذلك بقوله :

« مثلى ومثل ما بعثنى الله به ، كمثل رجل أتى قوما فقال : يا قوم انى رأيت الجيش بعينى ، فأنا النذير العريان ، فالنجاء النجاء ، فأطاعته طائفة فأدلجوا على مهلهم فنجوا ، وكذبته طائفة فصبحهم الجيش فاجتاحهم » ·

ثم ان الانذار فى حقيقته انما يصدر عمن يحرص على دفع الأذى كيلا يصيب من يحذره ، تدعوه الى ذلك الرحمة به والاشفاق عليه · ومع أن الله سبحانه وتعالى غنى عن طاعة خلقه فقد اقتضت حكمته أن يوليهم رعايته ويقيم لهم بين يدى دعوته هذا الانذار الذى يتجلى فيه بالغ رحمته سبحانه بخلقه ، وواسع كرمه ، حثا لهم على الاستجابة وقطعا لحجتهم عند المعاندة ·

ولا يعنى ابتداء الدعوة بالانذار بيوم القيامة أن قضية البعث الأخروى لها الأولوية كجانب من جوانب الايمان · فليس من شك أن قضية الايمان بالله ورسوله تأتى فى المقام الأول · وانما كان البدء بالانذار بها باعتبار ذلك هو المنهج الذى يقف كل عاقل أمام مسئوليته ، ويثير من نفسه كل قواها · كالصدمة العنيفة تصيب الانسان على غفلة منه ، فلا تبقى فيه جارحة الا هى فى ذروة تيقظها ، وكامل تهيئها للعمل ، ودرءا للخطر المحيق ·

ولنعش مع هـذه الآيات قليلا ، باعتبارها الومضة الأولى من مشكاة الوحى المبارك نستلهم هديها ونستشف بلاغتها ·

« **يا أيها المدثر · قم فانذر · وربك فكبر · وثيابك فطهر · والرجز فاهجر · ولا تمنن تستكثر · ولربك فاصبر · فاذا نقر فى الناقور · فذلك يومئذ يوم عسير · على الكافرين غير يسير** » (١) ·

وأول ما **يطالعنا فى هـذه الآيات الكريمة انها** مع جـوامع الكلم المعجز · فقد أوحت بكلماتها المعدودة بفيض من المعانى والتوجيهات شمل أصول الدعوة ورسم طريق ابلاغها ·

ففيها **التكليف** بالتبليغ :« **قم فانذر** » فأنت المكلف بالرسالة والمنتدب لها ، والمصطفى لحمل عبئها وانذار البشرية كلها بما يتهـددها من أخطـار اذا لم تستجب لها · فرسالتك عامة للناس جميعا ·

وفيها جوهر الدعوة : « **وربك فكبر** » · هكـذا بالقصر المستفاد من تقديم المفعول · فلا تكبر الا الله تعالى ، ولا يعظم فى عينيك سواه · هو الكبير وما سواه من أحد أو شىء صغير · وهـذا يقرر معنى الالوهية والتوحيد وهو جوهر الدعوة ولبهـا ·

وفيهـا **توجيـه** لما يجب أن يكون عليـه الداعية : من طهارة القـلب واستقامة السلوك وسمو الخلق « **وثيابك فطهر** » فهى كناية عن تطهير الذات التى تضمها الثياب · تطهير الذات بكل جوانبها ضميرا وقلبا وجـوارح وفكرا ، فالطهارة بهـذا المعنى أول ما يجب أن يتصـف به الداعية حتى يمكنه أن يفيض الطهر على الناس ، ففاقد الشىء لا يعطيه ·

وفيها ترجيه الى الالتزام بحـدود الدعوة والبعد عن كل ما يوجب العذاب ويندرج تحته كل ما يخالف تعاليمها : « **والرجز فاهجر** » · والرجز فى الأصل : العذاب ، وأطلق على موجباته · فالداعيـة قدوة يتأسى بهـا الآخرون ، ومنصب الداعية يفرض عليه أن يكون فى هـذا الجانب مثلا أعلى يستهوى بطهارته وسموه المقصرين ، ويجذب اليه الغافلين ·

وفيها **اخبار** للداعية بما يتعين عليه أداؤه من تضحيات وما يبـذله من جهود : « **ولا تمنن تستكثر** » ، فحياته كلها عطاء وبذل · فالدعوة هى

---

(١) المدثر : ١ ـ ١٠ ·

حياته ، وكل طاقته وقف عليها · وعليه الا يستكثر ما يبذله ولا يمتن به ، والا يكون لذاته نصيب فيه · فلا تستقيم الدعوة الا لمن ينكر ذاته وينسى عطاءه فكل ما يقدمه الداعية انما هو فضل يسره الله له ، واصطفاه ليجريه على يديه وهذا يستوجب الشكر عليه لا المن به واستكثاره ·

وفيها توصية بالصبر : « **ولربك فاصبر** » لأنه الزاد الذى يعينه على الثبات فى معركة الدعوة المرهقة لأنها معركة متعددة الجبهات ، فله مع اعدائه المعلنين معركة ، ومع المنافقين معركة ، ومع اعادة بناء الحياة على هدى الدعوة معركة ، ومع نفسه وأهوائه معركة ، ولا يجدى فى كل ذلك سوى الثبات والصبر والمصابرة ، الصبر ابتغاء وجه الله ، وايثارا لما عنده وثقة فى رعايته ·

وفيها بيان للمنذر به : وهو يوم القيامة · ذلك اليوم العسير الذى تجد فيه كل نفس ما عملت من خير محضرا ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ·

أرأيت الى تلك الكلمات القلائل وما تضمنته من معان أشرنا الى بعضها · ولو ذهبنا نستقصيها ونتبع فروعها ومناحيها لاحتاج ذلك الى جهود وجهود · واذا كانت البلاغة الايجاز فلاشك أن تلك قمتها ·

فاذا ألقينا نظرة على ما بها وراء ذلك من ألوان البلاغة والحسن رأينا عجبا · وأول ما يطالعنا منه اختيار حرف النداء « يا » ، الذى « وضع فى أصله لنداء البعيد ، فاذا نودى به القريب فذلك للتأكيد المؤذن بأن الخطاب الذى يتلوه به جدا »(١) · وأى خطاب أجدر بالعناية والاهتمام مما تتضمنه هذه الآيات التى تعلن بداية دعوة جديدة ستغير وجه الحياة · فاذا تركنا حرف النداء الى « أى » التى هى اسم مبهم لا يكاد المخاطب يسمعه حتى يستشرف لما يفسر ابهامه ويعين المراد منه · وفى التوضيح بعد الابهام ما يؤكد المعنى ويزيده تمكنا ورسوخا · فاذا أضفنا الى ما سبق حرف التنبيه « ها » نجده يقوى النداء ويعضده فى أداء دوره من تنبيه المخاطب وايقاظه واعلامه أنه المدعو · هذا الحشد من التأكيدات والمثيرات كان هو المطابق لما يقتضيه الحال هنا من أهمية المخاطب به وعظم شأنه ·

---

(١) الكشاف ج ١ ص ٢٢٤ ·

ثم ننظر فى قوله تعالى : « **يا أيها المدثر · قم فأنذر** » وما ترسمه الألفاظ من صورة حية ، لا يملك الخيال الا أن يتملاها واضحة كأنها واقع تشاهده العين · ومن منا يستطيع عندما يسمع هذا التعبير أن يكف خياله عن أن يطير الى هناك ليشاهد ذلك المدثر ينادى « قم » فينهض مستجيبا بادئا فى مهمته ؟ ثم التعبير بـ « أنذر » هكذا دون تعليقها بمعمول خاص ليتقرر بوضوح من أول لحظة فى حياة الدعوة مجال الانذار واطاره ، وأنه المدى الذى يصل اليه صوت الدعوة بالانذار ، وهذا ايماء الى عالميتها منذ أولى خطواتها ·

« **وربك فكبر** » وهذا أسلوب قصر بتقديم المفعول ، ومعناه اختصاص الله بالتكبير وقصره عليه ، لا يشاركه فيه غيره ، وهذا النظم للعبارة هو الذى يقتضيه المعنى ولا يؤدى بدونه ، فالاسلام دين التوحيد الخالص لا يقبل أن تشوبه شائبة · ثم أن اختيار لفظ « الرب » واضافته الى ضمير المخاطب وهو الرسول عليه الصلاة والسلام فيه ايماء الى أنه المستحق للتعظيم ، فهو ربك الذى رباك ورعاك واصطفاك لرسالته · فهو أهل لأن تكبره دون سواه ·

« **وثيابك فطهر** » وطهارة الثياب كناية فى لغة العرب عن طهارة ما تضمه الثياب · فالمأمور به هو طهارة الذات كلها · وللكناية قدرها فى بلاغة الكلام وتقويته وابرازه فى صورة هى أبهى وأنق · ثم اختيار لفظ « طهر » دون ما يؤدى معناه هو اختيار للفظ الذى لا يغنى عنه سواه ، ذلك « أن الطهارة هى الحالة المناسبة للتلقى من الملأ الأعلى ، كما أنها أليق شىء بطبيعة هذه الرسالة · وهى بعد هذا وذاك ضرورية للابسة الانذار والتبليغ ومزاولة الدعوة فى وسط التيارات والأهواء والمداخل والدروب ، وما يصاحب هذا ويلابسه من أدران ومقاذر وأخلاط وشوائب تحتاج من الداعية الى الطهارة الكاملة كى يمكنه استنقاذ الملوثين دون أن يتلوث ، وملابسة المدنسين دون أن يتدنس وهى لفتة دقيقة عميقة الى ملابسات الرسالة والدعوة والقيام بها على هذا الأمر بين شتى الأوساط وشتى البيئات ، وشتى الظروف ، وشتى القلوب »(١) ·

« **والرجز فاهجر** » فالرسول عليه الصلاة والسلام كان هاجرا للرجز وموجبات العذاب حتى قبل البعثة ، ومع ذلك أمر بالاستمرار فيه ·

---

(١) فى ظلال القرآن ج ٢٩ ص ١٨٦ ·

تأكيدا لأهمية ذلك ، وإيذانا بأنه طريق لا يلتقى أبدا مع طريق الدعاة ٠ ثم التعبير « اهجر » وما يوحى به من أن المطلوب ليس مجرد الامتناع عن مباشرة المعاصى ، بل الواجب الابتعاد والتحرز عن كل دنس ورجز ٠ هذا بالاضافة الى ما يفيده تقديم المفعول من التقوية والاهتمام ٠

« **ولربك فاصبر** » وهنا أيضا نرى تقديم الجار والمجرور وما يؤديه من قصر دوافع الصبر على الله تعالى ، فالصبر المطلوب هو الصبر ابتغاء وجه الله وايثارا لما عنده ، لا قصدا لغاية أخرى ، لنفسك فيها نصيب ٠

وواضح أن سبب الوصل بين الآيات هو ما بينها من شبه كمال اتصال حيث اتفقت فى الانشاء مع وجود الجامع بينها ٠

فاذا انتقلنا الى المنذر به وهو يوم القيامة ، رأينا الآيات تعرضه فى صورة مؤثرة تلمس الوجدان وتهز النفس ٠

« **فاذا نقر فى الناقور** » لم يقل فاذا جاء يوم القيامة ٠ بل عبر عنه بمشاهده وما يقع فيه ، تصويرا للمعانى وابرازا للحقائق ٠ والتعبير بالنقر يوحى بالشدة والعنف الذى يقرع الآذان ، وينبه الغافلين ٠ ثم يصف اليوم بأنه عسير ، وأن عسره على الكافرين وحدهم ويؤكد ذلك بتكراره المعنى فى قوله : « **غير يسير** » ٠ أما المؤمنون فهو هين عليهم ، يلقون فيه جزاء صبرهم وايمانهم ٠

فاذا أضفنا الى كل ما مر هذا الايقاع الموسيقى القوى المتمثل فى قصر الآيات وفواصلها المحكمة ، التى تتناسب مع مقام الانذار وما يوحى به من جدية وصرامة ٠ وهى نموذج للسجع الفنى الذى يسهم فى الافصاح عن المشاعر ونقل الخواطر وتصوير المعانى ٠

هكذا كانت بداية الدعوة انذارا صارما ، وتحذيرا قاطعا ورسما لمعالم الدعوة ، وتحديدا لمنهج الداعية ، ثم تهديدا قويا للمعاندين تنخلع منه قلوبهم وترتجف أوصالهم ٠

● **اساليب الدعوة :**

هذا وقد قلنا فى الباب الأول أن خصائص الدعوة الاسلامية وهى العالمية والخاتمية والوفاء بحاجات البشر الروحية والمادية جعلتها تواجه واقعا عريضا يمتد عبر أجناس من البشر وألوان من الحضارات والديانات

والفلسفات ، ويمضى بهذا الاتساع عبر الزمن حتى يرث الله الأرض ومن عليها ٠

وكان عليها لتواجه هذا الواقع العريض أن تنوع فى أساليبها ، وتعدد فى وسائل عرضها ، حتى تتكافأ مع الواقع العريض الذى تتصدى له ٠

ومن الآيات الجامعة التى ترسم طريق الدعوة وتشير الى وسائل عرضها قوله تعالى :

« ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » (١) ٠

يقول صاحب مدارك التنزيل وحقائق التأويل الامام النسفى فى تفسير هذه الآية : « ادع الى سبيل ربك » الى الاسلام « بالحكمة » بالمقالة الصحيحة المحكمة وهو الدليل الموضح للحق المزيل للشبهة « والموعظة الحسنة » وهى التى لا يخفى عليهم أنك تناصحهم بها ، وتقصد ما ينفعهم فيها أو بالقرآن ٠ أى ادعهم بالكتاب الذى هو حكمة وموعظة حسنة ٠ والحكمة : المعرفة بمراتب الأفعال ، والموعظة الحسنة : أن يخلط الرغبة بالرهبة والانذار بالبشارة ٠ « وجادلهم بالتى هى أحسن » بالطريقة التى هى أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين من غير فظاظة ٠ أو بما يوقظ القلوب ، ويعظ النفوس ويجلو العقول (٢) ٠

فالآية الكريمة تشير الى ثلاثة من طرق العرض والتبليغ وهذه الطرق تستغرق كل أصناف الناس وتصلح بمجموعها لأداء الدعوة على وجهها الأكمل اليهم ٠

فلا شك فى أن من الناس طائفة أصحاب نفوس مشرقة ، قوية الاستعداد لادراك المعانى والاستجابة لها ، شديدة الانجذاب نحو المبادىء واتباع الحق وهؤلاء يدعون بالحكمة ، وهى تعنى فى جوهرها بيان الحق لهم بيانا شافيا مؤيدا بأدلته القوية التى تنفى كل شبهة وتقطع السبيل أمام كل تردد ٠

---

(١) النحل : ١٢٥ ٠ (٢) تفسير النسفى ج ٢ ص ٢٢٥ ٠

ومن الناس طائفة شديدة الالف بالمحسات ، تدور حياتهم فى اطار ما توارثوه من عادات ، وما نشأوا فيه من تقاليد وقيم ، لا تنزع نفوسهم الى البحث عما هو حق أو باطل ، ولا تتطلع الى افضل مما هم عليه ، ولكن ذلك ليس عن عناد منهم أو مكابرة للبرهان · فانهم قاصرون عن ادراك أى برهان · وهؤلاء لهم الموعظة الحسنة ، التى ترقق القلوب ، وتعظ النفوس ، وتنفذ الى الوجدان ، ويختلط فيها الترغيب بالترهيب ·

ومن الناس طائفة من أصحاب اللدد والخصومة والجدال والمعاندة · تشكك فى كل خبر ، وتثير الشبهات ، وتلبس على الناس · وهؤلاء لهم المجادلة بالحسنى التى تعرى زيفهم · وتفضح باطلهم ، وتقطع حجتهم ·

وليس معنى هذا التقسيم أن يعمد الداعية الى تصنيف المدعوين وتوزيعهم على هذه الأصناف بصورة حاسمة ، فالانسان هو الانسان له جوانبه المتعددة ، من عقل ووجدان وارادة ، وانما يقع التفاوت فى نسبة أى من هذه القوى الى الأخرى · فقد يطغى الجانب العقلى عند شخص على الجانب الوجدانى ، وقد يحدث العكس ، وقد يتعادلان لديه فى القوة والاستعداد للتأثر · وأيا كان الأمر فلا غنى للداعية عن تنويع أساليب عرضه والتفنن فى وسائل تبليغه ، حتى يجد كل مخاطب لدى الداعية ما يلمس موطن التأثير فيه ، ويصل الى الاقتناع به والاستجابة له ·

وهكذا كان القرآن ـ وهو المثل الأعلى ـ متنوعا فى الأساليب ، متعددا فى طرق العرض ، مفتنا فى استخدام وسائل التأثير · بلغ فى ذلك مبلغا جعل صناديد قريش والعتاة من رجالها يصفونه بالسحر ، لما رأوا من تأثيره فى القلوب ، وهيمنته على النفوس ·

والآن لنبدأ أولى خطواتنا مع بلاغة القرآن فى دعوته الى الوحدانية باعتبارها أساس العقيدة الاسلامية ، لنرى كيف عرضها القرآن ودعا اليها بأساليبه البليغة المتعددة بادئين بأسلوب الترهيب ·

● أسلوب الترهيب :

قال الله تعالى : « حم · تنزيل من الرحمن الرحيم · كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون · بشيرا ونذيرا فاعرض أكثرهم فهم لا يسمعون · وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل اننا عاملون · قل انما انا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله

واحد فاستقيموا اليه واستغفروه ، وويل للمشركين • الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون • ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون • قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له اندادا ذلك رب العالمين • وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها اقواتها فى أربعة ايام سواء للسائلين • ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا او كرها قالتا أتينا طائعين • فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها ، وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ، ذلك تقدير العزيز العليم • فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود • اذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا الا الله ، قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فانا بما أرسلتم به كافرون • فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ، أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة ، وكانوا بآياتنا يجحدون • فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة أخزى ، وهم لا ينصرون • وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون • ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون • ويوم يحشر أعداء الله الى النار فهم يوزعون • حتى اذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون • وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ، قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء وهو خلقكم أول مرة واليه ترجعون • وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون • وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين • فان يصبروا فالنار مثوى لهم وان يستعتبوا فما هم من المعتبين » (١) •

القرآن الكريم فى دعوته يراعى الطبيعة البشرية وما جبلت عليه من ميول ويتحرى أن يصل الى النفس البشرية من منافذ التأثير فيها •

فأسلوب الترهيب يتخذ طريقه الى النفس من خلال ما ركب فيها من غريزة الخوف التى تدفع الانسان الى توقى الخطر ، والبعد عما يعرضه له •

---

(١) فصلت : ١ ـ ٢٤ •

واسلوب الترغيب ينفذ اليها من خلال ما ركب فيها من رجاء يستحث الانسان على بلوغ ما يرجوه ·

« فالخوف والرجاء بقوتهما وتشابكهما واختلاطهما بالكيان البشرى كله فى أعماقه ، يوجهان فى الواقع اتجاه الانسان فى الحياة ، ويحددان أهدافه وسلوكه ومشاعره وأفكاره · فعلى قدر ما يخاف ، ونوع ما يخاف ، وعلى قدر ما يرجو ونوع ما يرجو يتخذ لنفسه منهج حياته ، ويوفق بين سلوكه وبين ما يخاف ويرجو » (١) ·

والقرآن الكريم يستخدم كلا الأسلوبين ولا شك أن فى ذلك منتهى الحكمة فى طريقة الدعوة ·

وهذه الآيات البينات هى صدر سورة « فصلت » وهى من السور المكية التى تعالج فى مجملها القضايا الأساسية للدعوة الاسلامية · كالوحدانية والبعث والنبوة واثباتها · وترتيب هذه السور ـ حسب النزول ـ الواحدة والستون (٢) · أى أنها نزلت بعد أن قطعت الدعوة شوطا كبيرا منذ أن قام الرسول الكريم بتنفيذ أمر ربه « قم فانذر » · وخلال هذا الشوط الذى قطعته الدعوة حتى نزول هذه السورة كانت الاتجاهات قد تبلورت من خلال الصراع المتصل حول الدعوة ، فآيات الذكر الحكيم يتوالى نزولها على قلب المصطفى ﷺ فيبلغها للناس ، ويرى صناديد قريش فى الدعوة خطرا على نفوذهم وقضاء على امتيازهم ، فيناصبونها العداء لدوافع مختلفة وكلما تعقبهم القرآن فاضحا لحججهم ، كاشفا لزيفهم ، زادوا من عنادهم ولجوا فى طغيانهم حتى أحاطوا أنفسهم بسياج من الكراهية للدعوة ورجالها ، وأصموا آذانهم عن كل نداء ، وتواصوا : « لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون »(٣) · واتجهوا الى الأذى يذيقونه الوانا لمن شرح الله صدورهم لدعوته فأسلموا وجوههم له ·

فى هذه الملابسات نزلت هذه الآيات الكريمة تواصل تصديها لهؤلاء ، وتتجه اليهم مبينة عظم جرمهم ، ومنذرة لهم بما ينتظرهم من سوء المصير ·

---

(١) دراسات فى النفس الانسانية ص ٧٦ ـ ٧٧ ·

(٢) انظر الاتقان فى علوم القرآن جـ ١ ص ٢٥ ·

(٣) فصلت : ٢٦ ·

وتبدأ الآيات الكريمة بالحديث عن الكتاب العزيز ، ثم تصور موقفهم منه ، وتنتقل بعد ذلك الى بيان ما فى موقفهم هـذا من تجاوز لكل منطق وخروجهم عن حدود كل معقول ، ثم تتجه اليهم بالوعيد والتهديد مذكـرة بما حدث للأمم السابقة من عقوبة فى الدنيا ، حين رفضت الهدى ، واختارت سبيل الغى والعناد · ثم تعرض عليهم صورة لما ينتظرهم يوم الحساب من عذاب الخزى والهوان ·

هـذه هى الأغراض التى تدور حولها هـذه الآيات الكريمة · فلنر كيف صورتها وعبرت عنها ؟

« حم » افتتحت السورة بهـذين الحرفين · وهى ظاهرة تكررت فى بدء كثيرا من سور القرآن الكريم · وقد نقل عن العلماء أقوال كثيرة فى معنى هذه الحروف وفى تفسير هـذه الظـاهرة · غير أننا فى مجـال البحـث البلاغى نشير الى اثنين منها لصلتهما بما نحن بصـدده ·

أولهمـا : « أنهـا حـروف ذكـرت بيـانا لاعجـاز القـرآن ، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله ، مع أنه مركب من هـذه الحروف المقطعة التى يتخاطبون بها · ولهـذا فكل سورة افتتحت بالحروف فلابد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان أعجازه وعظمته ، وهـذا معلوم بالاستقراء وهو الواقع فى تسع وعشرين سورة »(١) ·

وقد تتبعت الدكتورة بنت الشاطىء هـذه السور وأشارت الى الآيات التى تتحدث فيها عن الذكر الحكيم وأثبتت أنها قاعدة مطردة فيها (٢) ·

وعلى هـذا الوجه فان ابتداء السورة بهـذه الحروف هو أمر يتصل ببلاغة القرآن ، اثباتا لها ، وتحديا بها ·

وثانيهما : « أنها أصوات للتنبيه عمد اليها ليكون فى غرابتها ما يثير الالتفات ، وقد ترك ما ألفوا من ألفاظ التنبيه الى ما لم يألفوا لأنه لا يشبه كلام البشر ولكى يكون أبلغ فى قـرع الأسماع ·

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ص ٣٨ ·

(٢) انظر الاعجاز البيـانى للقرآن ومسائل ابن الأزرق · فصل فواتح السور وسر الحروف ص ١٢٦ وما بعـدها ·

ثم اختلفوا فيمن يكون المقصود بهذا التنبيه : فأبو حيان يرى انها تنبيه للمشركين الزاما لهم بالحجة « ليستغر (١) بها المشركون فيفتحوا لها اسماعهم فتجب عليهم الحجة » .

على حين يتجه بها الفخر الرازى الىتنبيه النبى ﷺ ، لا المشركين ، فقال يفصل هذا الوجه « الحكيم اذا خاطب من يكون محل الغفلة ، ومن يكون مشغول البال بشغل من الأشغال يقدم على الكلام المقصود شيئا غيره ، ليلتفت المخاطب بسببه ، ويقبل بقلبه عليه ثم يشرع فى المقصود » .

وذلك المنبه قد يكون كلاما له معنى مفهوم كقول القائل : اسمع ، واجعل بالك الى .... وقد يكون شيئا فى معنى الكلام المفهوم كقول القائل : أزيد ، ويازيد ... وقد يكون صوتا غير مفهوم كالصفير بالفم والتصفيق باليد ...

والنبى ﷺ وان كان يقظان الجنان ، لكنه انسان يشغله شأن عن شأن ، فكان يحسن من الحكيم أن يقدم على الكلام المقصود حروفا هى كالمنبهات .

ثم ان تلك الحروف التى لا معنى لها تكون أتم فى افادة المقصود الذى هو التنبيه ، من تقديم الحروف التى لها معنى . لأن المقدم اذا كان كلاما منظوما وقولا مفهوما ، ربما ظن السامع انه كل المقصود ولا كلام بعد ذلك فيقطع الالتفات عنه . أما اذا سمع صوتا بلا معنى فانه يقبل ولا يقطع نظره عنه ما لم يسمع غيره ، لجزمه بأن ما سمعه ليس هو المقصود ، فاذن تقديم الحروف التى لا معنى لها فى هذا الموضع ، على الكلام المقصود فيه حكمة بالغة » (٢) .

ومن ذلك نرى أن هذه الحروف التى افتتحت بها السورة انما كانت لغرض بلاغى تؤديه ، وهو التنبيه وايقاظ الحس والشعور لتلقى ما يأتى بعده من أمر عظيم يجب أن تتنبه له الأذهان .

---

(١) استغر فلانا : أتاه على غفلة ، والمراد أنه فاجأهم بهذه الحروف لاثارة انتباههم . انظر القاموس ص ١٠٥ ج ٢ .

(٢) الاعجاز البيانى للقرآن . فصل فواتح السور وسر الحروف .

« **تنزيل من الرحمن الرحيم** » · وعلى الوجه الذى قدمناه من أن هـذه الحروف للتنبيه ، فان قوله تعالى « **تنزيل** » خبر لمبتدأ محذوف ويكون فيـه ايجاز بالحذف · وسر الحذف هنا أن الخبر وهو قوله « **تنزيل** » مع تعليق قوله « **من الرحمن الرحيم** » به ، كأنه يشـير اليه ، وانـه بلغ من الشـهرة بما علق به مبلغا يغنى عن ذكره · وقوله تعالى « **تنزيل** » هو مصدر أطلق على اسم المفعول للمبالغة فقد جعل المنزل « تنزيلا » وان كان من الجائز أن « **تنزيل** » مبتدأ و « **كتاب** » خبره ، ووجهه أن « **تنزيل** » قد خصص بالصفة فساغ الابتداء به · والتنزيل من الرحمن الرحيم ، واختيار هـذين الاسمين من أسماء الله الحسنى والنسبة اليهما لتنبيههم الى أن الكتاب العزيز من لدن رحمن رحيم ، وأن ما فيه انما هو صادر عن مقتضى رحمة الله بهم محقق لمصالحهم فى الدنيا والآخرة ، وأن رفضهم له هو رفض لرحمة يسوقها الله اليهم · وفى هـذا حث لهم على قبوله واستمالة لقلوبهم ·

« **كتاب فصلت آياته قـرآنا عربيا لقوم يعلمون · بشيرا ونذيرا** » هـذا القرآن المنزل من الرحمن الرحيم قد فصلت آياته فى أساليب مختلفة من قصص ومواعظ وأمثال ووعد ووعيد حسبما تقتضيه المقامات بلسان عربى ، وأنتم أهل اللسان العربى لا يلتبس عليكم منه شىء · انه يبشركم بمـا أعـد لمن آمن به من الكرامة والفضـل وينـذركم عاقبة كفركم به واعراضكم عنه ، فما الذى يصرفكم عنه ؟ وأى عذر لكم فى مخالفته ؟ وهكذا تتوالى لمسـات القرآن الحاثة على الاستجابة والداعية الى الايمان · ويلاحظ ما فى قوله تعالى : « **بشيرا ونذيرا** » من مجاز عقلى فالكتـاب العزيز مبشر به ومنذر بما فيه · ولكن النظم الكريم جعله هو المبشر والمنذر · مبـالغة فى كمـال الصفة فيه كأنه هو الفاعل للتبشير والانذار · وهذا تصوير بتشخيص الأشياء وخلع صفات الأحيـاء عليها ·

ثم ينتقل الى بيان موقفهم من هـذا الكتاب الذى صدر عن مقتضى رحمة الله بهم ، والذى سلك معهم كل طرق الاقناع وفصلت فيه الآيات · وهو بلسانهم ولا تخفى عليهم مراميه وأحكامه وحججه · فماذا كان منهم ؟

« **فاعرض أكثرهم فهم لا يسمعون · وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل اننا عاملون** » ·

لقد أعرض أكثرهم ، ولم يستجب له · وفى التعبير عن عدم الاستجابة وهو معنى ذهنى بالاعراض ما يصور حركة هؤلاء وانصرافهم بعيدا عن القرآن مبالغة فى التعبير عما فى قلوبهم من بغض له يصرفهم عن الاستجابة لهديه ·

« **فهم لا يسمعون** » والمعنى أنهم لا يقبلون ولا يطيعون ولا يستجيبون وقد كنى القرآن عن هذا المعنى بأنهم لا يسمعون · فنفى السماع عنهم نفيا للازمه وهو الاستجابة والانتفاع ، والكناية كما هو معلوم تعرض المعنى مصحوبا بدليله وهذا أبلغ وآكد ·

« **وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه** » والأكنة جمع كنان وهو الغطاء وهذا تصوير لعدم استجابة قلوبهم للحق وتأثرها به ، كأنها مغلفة بأغطية وحوائل تمنع وصوله اليها ونفاذه فيها · فقد شبه مشاعر الكراهية والحقد ونحوها ، التى حالت بين قلوبهم والانقياد للحق ، **بالأكنة التى تغلف القلوب وتحول دون وصول شىء اليها** · ثم حذف المشبه **واستعمل المشبه** به بمعنى المشبه على سبيل الاستعارة التصريحية ، وواضح أن هذا تصوير بالاستعارة للمعانى وعرضها فى صور حسية تكسبها قوة وتأكيدا ، وتزيد الكلام بلاغة وتأثيرا ·

« **وفى آذاننا وقر** » الوقر الثقل · والمراد به هنا الصمم · واستعمال الوقر بمعنى الصمم مجاز مرسل علاقته السببية وفائدته تصوير المعنى تأكيدا له · ثم ان المراد هنا ليس الاخبار بأن فى آذانهم صمما حقيقيا ، فهم يسمعون ، بل المراد تصوير حالهم فى عدم استفادتهم من الكتاب وكراهية أسماعهم له ، بحالة من لا يسمع حقيقة · وهنا لجأ الى تصوير هذا المعنى بأسلوب الكناية القادرة على أن تقدم الفكرة مصحوبة بدليلها المحس ·

« **ومن بيننا وبينك حجاب** » وهذه استعارة تصور تباعد المذهبين والدينين كأن بينهم وما هم عليه ، وبين الرسول ﷺ وما هو عليه ، حجابا حسيا ساترا وحاجزا منيعا · فلا تلاقى بينهما · فقد صور الحاجز المعنوى بصورة حاجز مادى · ثم استعمل « من » وهى حرف جر زائد لتفيد زيادة فى تأكيد المعنى ، لأنها تفيد أن هذا الحاجز ابتدأ منا وابتدأ منك ، فالمسافة المتوسطة لجهتنا وجهتك مستوعبة بالحجاب لا فراغ فيها (١) ·

---

(١) انظر الكشاف ج ٣ ص ٤٤٢ ·

ولما كان المقام هنا مقام الاخبار عن موقفهم من التنزيل ، وانهم قد بلغوا كل مبلغ فى رفضه وكراهيته كان تصوير القرآن لحالهم بهذا الأسلوب القوى المؤكد هو المناسب للمقام ، والتعبير عنه بأوفى بيان ·

« **فاعمل اننا عاملون** » وهذا تعبير عن اصرارهم على موقفهم والمضى فى عنادهم ، وقد تلمح فيه تعريضا بالاستخفاف والتحدى وأنهم لا يبالون به وفيه تسجيل عليهم أنهم قد بلغوا الغاية فى تبجحهم واستهتارهم ·

« **قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد فاستقيموا اليه واستغفروه** » · هكذا صور القرآن الكريم موقف المشركين من التنزيل المحكيم وانهم قد أغلقوا كل منافذ الحس لديهم دونه ، حتى لا يجد طريقا اليهم وأعرضوا عنه وفاصلوه فصالا باتا ليس للقاء معه من سبيل ·

ثم بدأ فى الرد عليهم بأن أمر الرسول ﷺ أن يجيبهم قائلا « **انما انا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد** » وهو دليل على وجوب اتباعهم لدعوته وقبولهم لها · فهو يقول : انما أنا بشر مثلكم أتساوى معكم فى البشرية ، ولكنى مع ذلك يوحى الى · فصحت نبوتى بالوحى الى وأنا بشر مثلكم ، واذا صحت نبوتى وجب عليكم اتباعى · ونرى التعبير القرآنى فى وضوحه قد ساق الدليل بعيدا عن كل صور المنطق وأساليب الجدل المتعارف عليها ، مما حفظ عليه اشراقه ووضاءته ، ثم لنتأمل هذا التلطف معهم على الرغم مما هم عليه من استعلاء وطغيان ، فكأنه يقول لهم : أنا لا أدعى ميزة عليكم ولست من جنس مغاير لكم حتى يكون بينى وبينكم حجاب وتباين يوجب هذا التباعد ، فانما أنا بشر مثلكم مأمور بما أمرتم به · وهذا درس على الداعية أن يتمثله دائما فى تعامله وسلوكه ، اذا كان حريصا على أن يصل الى النفوس ، ويستهوى الأفئدة ·

« **انما الهكم اله واحد** » مما أوحى الى ، وأنا وانتم سواء فى التكليف به ، توحيد الله وافراده بالعبادة · ولهذا عبر عنه بأسلوب القصر « بأنما » ليفيد قصر الألوهية عليه سبحانه ونفيها عن غيره مطلقا ، فلا اله الا هو أما غيره مما يعبده المشركون من أصنام أو كواكب أو ملائكة أو شمس أو نار أو بشر أو غير ذلك ، فهى مربوبة لله ، ولا يمكن أن يتحول المربوب الى رب · وهذا درس آخر للداعية يوجب عليه أن يكون أول الملتزمين بما يدعو اليه ·

« **فاستقيموا اليه واستغفروه** » واذا كانت الالوهية لله وحده فالواجب أن تتجهوا اليه وحده بالتوحيد واخلاص العبادة ، والا تميلوا الى غيره ، وعليكم أيضا أن تبادروا الى طلب مغفرته وصفحه عما سبق منكم من الشرك · والتعبير عن اخلاص العبادة لله وحده بالاستقامة اليه ، وعدم الميل الى غيره هو أيضا تصوير للمعنى يكسبه وضوحا وقوة ·

ومن الواضح أن جملة « **قل انما أنا بشر** » مفصولة عما قبلها لما بينهما من كمال انقطاع لاختلافها خبرا وانشاء ·

والى هنا صور القرآن موقفهم من الدعوة ورفضهم لها · ثم رد عليهم باقامة الحجة على وجوب تصديقه ، فهو بشر لا قدرة له على الاتيان بهذا الذى أعجزهم · وانما القادر عليه هو الله · ثم بين لهم **أساس العقيدة وهو** التوحيد ، وطلب منهم الاستقامة على أمر الله كله والتضرع اليه أن يتجاوز عما سبق لهم من اشراك به ، فكان من تمام نصحه لهم أن يحذرهم عاقبة اصرارهم على موقفهم فقال :

« **وويل للمشركين · الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون** » انه الانذار الصريح بالمصير الذى ينتظرهم اذا لم يستجيبوا · **وهو الويل** الطويل والشر المترصد لمن يشرك بالله · ثم خص بالذكر وصفين من صفات المشركين هما : عدم ايتاء الزكاة ، وانكار البعث ·

أما انكار البعث فهو حقيق بالتنويه بخطره على المنكر ، اذ انه يعنى غياب أكبر باعث الى الاستقامة على أمر الله · وأما منع الزكاة ، فقيل : خص بالذكر لأن المال أحب شىء الى الانسان ، فاذا بذله فى سبيل الله فذلك أقوى دليل على ثباته واستقامته وصدق نيته · وقيل ليس المقصود بالزكاة المال · وانما المعنى : لا يفعلون ما يكونون به أزكياء ، وهو الايمان ، فالمراد بالزكاة طهارة النفس وتزكيتها ، ومن أهم ذلك تزكيتها من الشرك(١) ·

ولعل الرأى الأخير أمس رحما بالمعانى والمواقف التى تعالجها الآيات الكريمة ، فنحن بصدد نفوس قد انحرف بها التعصب وأعماها الحقد والعداء فتنكيرها بتزكية النفس هو الموافق لحالها ، فاذا أضفنا الى ذلك ان الزكاة انما فرضت فى السنة الثانية من الهجرة ، وأن هذه الآيات مكية ، زاد اقتناعنا بما رجحناه ·

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٣٢ ·

ثم لنتأمل كيف عبر بالجملة الفعلية فى « **لا يؤتون الزكاة** » ليفيد أن عدم ايتائها متجدد ، وهو معنى يتمشى مع ايتاء الزكاة سواء أردنا بها زكاة المال أو تزكية النفس · بينما عبر بالجملة الاسمية فى « **وهم بالآخرة هم كافرون** » ليفيد أن كفرهم أمر مستمر ثابت ·

« **ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون** » بعد أن حذرهم عاقبة الشرك وتوعدهم بالهلاك ، أردف ذلك ببيان عاقبة الايمان ومصير المؤمنين وأن لهم عند الله أجرا دائما غير مقطوع ، وذلك ليوازنوا بين المصيرين ، ويحقق كل من الترهيب والترغيب أثره ، لعلهم يرجعون ·

وذكر مصير المؤمنين هنا يقتضيه ـ بجانب هذا ـ أنه أخبر عن موقف المدعوين من الدعوة وقال « **فأعرض أكثرهم** » فهناك من آمن وان كانوا قلة بالنسبة للآخرين ، فناسب ذلك أن يبين عاقبة كلا الفريقين ·

« **قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ، ذلك رب العالمين · وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين · ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين · فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها ، وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ، ذلك تقدير العزيز العليم**»(١) ·

تنتقل الآيات بعد ذلك الى الحديث عن مدى جرم هؤلاء وعظيم تبجحهم واستهتارهم واقدامهم على ما تنكره العقول وتأباه الأفهام ·

« **قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين** » قل لهم : أيليق بعاقل أن يكفر بمن خلق الأرض فى يومين ؟ من أنتم حتى تكفروا ؟ انكم بعض سكانها ، وجزء من خلقه فيها · وهل للمخلوق أن ينكر خالقه ؟ « **أئنكم لتكفرون** » انه يقدم همزة الاستفهام الدالة على الانكار ثم يتبعها ـ بأن واللام ـ لتأكيد هذا الانكار ، والاشارة الى أن فعلهم هذا مما ينكر العقلاء وقوعه ، فيحتاج الى التأكيد · ثم يعبر عمن يقع عليه الكفر باسم الموصول لتفخيم شأنه تعالى بما سيذكره من صلة له وهو « **خلق الأرض فى يومين** » ، هذه الأرض ـ التى ترون عظمتها وجبالها وأنهارها ونباتها

---

(١) فصلت : ٩ ـ ١٢ ·

وحيواناتها وسكانها وكل ما فيها ـ خلقها الله فى يومين · أفمن هـذا شأنه يمكن لعاقل أن يكفر به ؟ انه لسفه عظيم وتطاول كبير ·· والتعبير باليومين ـ والله أعلم ـ هو اشارة الى عظيم قدرته سبحانه لأن اليوم الحقيقى كمقياس للزمن لا يتحقق الا بعد وجود الأرض وتسوية سماواتها وابـداع كواكبهـا وترتيب حركاتها ، ولم يكن شىء من ذلك وجد قبـل خلق الأرض ·

« **وتجعـلون له انـدادا** » عطف على تكفرون ، داخل فى حكم الانكار · والمعنى أيليق أن تجعلوا للقادر الذى خلق الأرض فى يومين **أندادا** ؟ ان الند والنظير لابد أن يكون مماثلا لنظيره ونده · فماذا خلق **هؤلاء** الـذين تجعلونهم أندادا لله ؟ وما مدى قدرتهم ان كان لهم قدرة واستطاعة ؟ أرونى ماذا خلقوا من الأرض ؟ أم لهم شرك فى السموات ؟

« **ذلك رب العالمين** » ذلك الذى تكفرون به لم يخـلق الأرض فقط بل هو رب العالمين ، وخالق جميع الموجودات ومربيها · فكيف يتصور أن يكون أخس مخلوقاته ندا له ؟ ولنتأمل التعبير بلام البعد مع قرب **العهد بالمشـار** اليه وهو « **الذى خلق الأرض فى يومين** » للايذان ببعد منزلته فى العظمة · وكذلك صيغة الجمع فى قـوله « **العالمين** » اشارة الى واســع ملكه وتأكيدا لعظم قدرته ·

« **وجعل فيها رواسى من فوقها** » هـذه الجملة داخلة فى حكم الصلة **لأنها معطوفة على « خلق » وهى تأكيد لاستحقاقه سبحانه الانفراد بالألوهية** واستحالة أن يكون له ند · ونلاحظ أنها قد فصلت عن جملة الصلة الأولى بجملتين : الأولى : قوله تعالى : « **وتجعلون له اندادا** » وهى متحدة بقوله تعالى « **تكفرون** » فهى كالاعادة لها · أما الثانية فهى قوله تعـالى « **ذلك رب العالمين** » فهـذه اعتراضية مقررة لمضمون الكلام ، وبمنزلة التأكيد : فالفصل بهما كلا فصل · والفصل بهاتين الجملتين فيه اشارة الى أن مجرد خلق الأرض كاف فى تحقق الربوبية فكيف اذا انضم اليه ما سيأتى ؟

والمراد بالرواسى الجبال ، والضمائر تعود على الأرض ، **أما النص على** أن الرواسى من فوقها فللاشارة الى أنها ظاهرة لهم دالة ـ بعظمتها وتعـدد ألوانها وتنوع معادنها ـ على قدرة خالقها ، وفيها الدليل لمن كان له قلب يفقـه ·

« **وبارك فيها** » وهـذا توجيه آخر لعقولهم كى تدرك قدرة الله · فهم يرون ما قدره الله من كثرة الخير على الأرض وما فيها من انسان وحيوان ونبات ومياه ·

« **وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين** » أى أوجد فى الأرض ما يحتاج اليه أهلها وساكنوها من القوت ، فالمراد أقوات أهلها على سبيل المجاز المرسل ، فقد أطلق المحل وأراد الحال · وهذا لتأكيد أنه قدر من الأقوات ما يسع من فى الأرض وما فيها · فهو للأرض كلها ، وهذا القوت قدره الله تعالى للسائلين أى الطالبين المحتاجين · فكل صاحب حاجة تتصل بقوته ومعيشته يجدها فما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها · واذا كان هذا ظاهرا لهم أليس فيه ما يهديهم الى قدرة الله وعظمته فينبغى ألا يشركوا به من لا يقدر على شىء ؟

« **فى أربعة أيام سواء** » المقصود فى تتمة أربعة أيام كاملة · أى فى يومين يضافان الى اليومين اللذين خلق فيهما الأرض ، فالمجموع أربعة كاملة ، والمراد بالزمن هنا ـ والله أعلم ـ هو ما سبق أن قلناه عند قوله تعالى : « **فى يومين** » · هذا وفى تفصيل بيان ما يتعلق بالأرض وما فيها من معايش أهلها ما يحملهم على الايمان ويزجرهم عن الكفر ·

« **ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا او كرها قالتا اتينا طائعين · فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها ، وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ، ذلك تقدير العزيز العليم** »(١) ·

« **ثم استوى الى السماء** » ، عبر عن توجه ارادته سبحانه الى ايجاد السماء وتكوينها بالاستواء ، كما تقول : استوى الى مكان كذا اذا قصد نحوه قصدا لا يشغله عنه شىء · وهو من الاستواء ضد العوج ، والتعبير بالاستواء يفيد بجانب القصد أن ليس هناك صارف يصرفه عما قصد اليه ، وهذا المعنى هو الذى يليق بجلال الله سبحانه ، فهو الذى لا يشغله شىء عن شىء ، و « **ثم** » يجوز أن تكون للترتيب والتراخى الزمنى أو للتراخى المعنوى ، ولاشك أن السماء أرفع وأرقى فى الحس ·

« **وهى دخان** » هذه اشارة الى ما كان عليه الكون قبل خلقه ، وحقيقته يعلمها الله سبحانه وتعالى ، وغاية ما يمكن للعلم أن يعرفه : ظنون واحتمالات على اننا نقرأ الكثير معا كتبه العلماء المتخصصون عن بدء الكون فنرى فيه ما هو قريب معا تذكره الآية الكريمة ، فهم يقولون : انه

---

(١) فصلت : ١١ ، ١٢ ·

كان قبل خلق النجوم ما يسمى بالسديم(١) ، وهـذا السديم غاز ، أى دخان · « والسدم من نيرة ومعتمة ليس الذى بها من غاز وغبار الا ما تبقى من خلق النجوم · ان نظرية الخلق تقول : ان المجرة ــ وهو مجموعة تضم ملايين النجوم ــ كانت من غاز وغبار ومن هذين تكونت بالتكثف النجـوم ، وبقيت لها بقية ، ومن هـذه البقية كانت السدم ولا يزال من هـذه البقية منتشرا فى هذه المجرة الواسعة مقدار من غـاز وغبـار يساوى ما تكونت منه النجوم ، ولا تزال النجوم تجر منه بالجاذبية اليها ، فهى تكفس السماء كنسا · ولكن الكناسين ــ على الرغم من أعدادهم الهائلة ــ قليلون بالنسبة لمـا يراد كنسه من ساحات أكبر وأشد هولا »(٢) ·

واذا كان العلماء يقولون هذا ــ وهو قريب كما نرى مما تعلنه الآيـة الكريمة ــ أفلا يكون ذلك دليلا واضحا على صدق هـذا الكتاب وأنه من عند الله ؟ وأنى لمحمد الأمى أن يعرفه ؟ أليس فيها ما يحمل الانسان على الايمان ولاسيما علماء القرن العشرين الذين لمسوا ذلك وهدتهم اليه تجـاربهم وبحوثهم ؟

« فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينـا طـائعين » هـذا تصوير لأثر قدرة الله تعالى فى المقدروات ، فقدرته نافذة لا يصدها شىء ، وجميع من فى الكون وفق مشيئته لا يخرج عنها شىء ، فلم يكن منه سبحانه خطاب للأرض والسـماء ولا جـواب منهما ، وانما هو تمثيل على سـبيل الاستعارة ، فقد شبه حال الأرض والسماء فى خضوعهما لارادته وعـدم قدرتهما على معارضته ، بحال المخاطب المطيع ، الذى يوجه اليه المخـاطب الأمر فلا يملك الا الاستجابة ، واستعار الهيئة الثانية وعبر بها عن الهيئـة الأولى · وللتمثيل قدرته على توضيح المعانى ، والتأثير فى النفوس · اذ أبرز المعنى المجرد فى صور حسية ناطقة تمتع الخيال وتهز الوجـدان ·

أما قوله تعالى « طوعا أو كرها » فهو كناية عن اسـتحالة امتناعهما على قدرته وأنهما منقادتان خاضعتان · كما تقول : ستفعل هـذا شـئت

---

(١) السديم : كأمير · الكثير النكر والضـباب الرقيق أو عـام · القاموس جـ ٤ ص ١٢٠ · وفى المنجـد فى اللغـة والأدب والعـلوم : أن السديم ــ فى علم الفلك ــ بقـع فى الكرة السماوية ضعيفة النور منهـا ما هو تجمـع غازات مضيئة ومنهـا يضم العـديد مـن الكواكب · وتجمع على : سـدم · ص ٣٢٧ ·

(٢) انظر كتـاب مع الله فى السماء ص ١٠٣ ·

أم أبيت ، وغرضك اخباره أنه لا يملك المخالفة · وهو تأكيد للمعنى · ويلاحظ ما فيه من طباق يلفت النظر ويشد الانتباه ·

« **فقضاهن سبع سموات فى يومين واوحى فى كل سماء أمرها** » أى خلق الله السماوات فى يومين وخلق ما فيها مما هى فى حاجة اليه · ونلاحظ أن الضمير « **هن** » اما أن يعود على السماء باعتبار المعنى ، أو **هو** مبهم و « **سبع سموات** » تمييز له ، كما أن الجملة كلها تفصيل لما سبقت الاشارة اليه اجمالا فى قوله تعالى : « **ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ···** » وللتفصيل بعد الاجمال أثره ، حيث يكون استجابة لما فى نفس المخاطب من الشوق لمعرفته ·

« **وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا** » بأسلوب الالتفات حيث أسند التزيين الى نون العظمة ، ولاشك أن ذلك يومىء الى مزيد من العناية بالأمر الى جانب ما فيه من تجديد لنشاط السامع واثارة انتباهه · والمراد بالمصابيح : الكواكب ، فهى استعارة ، لأنها ترى متلألئة كالمصابيح ، وهدف الاستعارة هو توجيه أنظارهم الى ما فى السماء من دلالة على قدرة الله ، حيث أبدعها على هذه الصورة الرائعة · « **وحفظا** » أى أن الكواكب خلقت زينة للسماء وحفظا لها · ومعنى الحفظ تشير اليه آيات أخرى بأنه من الشياطين الذين يحاولون استراق السمع ، وكل هذه اشارات الى أحكام تدبير الله للكون ، وأنه جعل فيه كل ما يصلحه ·

« **ذلك تقدير العزيز العليم** » ذلك الذى عرضته الآيات من خلق الأرض وامدادها بكل ما تحتاجه الحياة ، وابداع السماء وما فيها هو تقدير العزيز العليم · انها ثلاث كلمات لا يسد مسدها سواها · فلفظ « **تقدير** » هو ما يصلح هنا دون غيره · فالكون وما فيه من قوى وعناصر تتفاعل وتمور لابد من ضبط حركتها وتأثيرها بتقدير حتى لا تطغى وتدمر ، والكواكب والنجوم لابد من ضبط أحجامها ومواقعها بتقدير ، والا اختل نظام الكون · كل شىء فى الكون لابد أن يأخذ وضعه المقدر وحجمه المقدر ، وصدق الله العظيم : « **وخلق كل شىء فقدره تقديرا** »(١) · « **وان من شىء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم** »(٢) · وقد نستأنس لهذا بما نقرؤه عن احكام مذهل يلمسه العلماء فى كل مظاهر الكون · فلو فرض أن الأرض

---

(١) الفرقان : ٢ ·

(٢) الحجر : ٢١ ·

مثلا قد زاد حجمها أو نقص ، أو تغير موقعها من الكواكب بحيث قربت من الشمس أو بعدت عنها عما هى عليه الآن ، ولو كان التغيير ضئيلا ، فان ذلك يجعلها غير ملائمة للحياة (١) · فمن ذا الذى يدبر ذلك كله ويقدره ؟ انه **العزيز** ـ البالغ فى القدرة العليم ـ الذى يحيط علمه بكل شىء سبحانه جل ثناؤه وعظم شأنه ·

وبعد هذه السياحة فى الكون أرضه وسمائه ، ومعاينة آثار قدرة الله ودلائل عظمته ، ومشاهدة آلائه ونعمه ، وقبل ذلك ايراد الدليل على وجوب طاعة الرسول وحثهم عليها بالترغيب والترهيب · هل يظل هؤلاء المشركون مصرين على عنادهم جاعلين لله أندادا ؟ اذا كان كذلك فعليهم أن ينتظروا ما أعده هذا القادر لهم من عذاب الدنيا وخزى الآخرة ·

« فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود · اذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم الا تعبدوا الا الله ، قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فانا بما أرسلتم به كافرون · فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ، أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة ، وكانوا بآياتنا يجحدون · فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة أخزى ، وهم لا ينصرون · وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون · ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون » (٢) ·

« **فان أعرضوا** » بعد هذه الدلائل الواضحة وأصروا على أن يشركوا بالله ويتخذوا له أندادا · فقل : « **أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود** » ، وعبر بالماضى فى « **أنذرتكم** » بدلا من المضارع للدلالة على تحقق الانذار . المنبىء بتحقق المنذر به · فهى استعارة فى الفعل باعتبار زمنه « **صاعقة** » والصاعقة فى الأصل نار لا تمر بشىء الا أحرقته مع وقع شديد (٣) · والمراد بها هنا العذاب الشديد كأنه صاعقة فهى استعارة يقتضيها مقام الترهيب ، لما توحى به بجرسها ومعناها بالعنف والقوة ، وما تبديه للخيال من صورة النار تنزل من السماء فتسحق ما تقع عليه وتبيده · وهو ما يتناسب مع شدة جرمهم وتبجحهم ·

---

(١) انظر فى هذا كتاب « الله يتجلى فى عصر العلم » الصفحات من ٥ ـ ١٠ ·

(٢) فصلت : ١٣ ـ ١٨ · (٣) أساس البلاغة ص ٥٣١ ·

وتروى كتب السيرة حادثة تصور وقع هذا الانذار على قلب رجل لم يؤمن ولكنه يستمع الى الآيات من رسول الله ﷺ حتى اذا وصل الى قوله تعالى : « **فان أعرضوا فقل انذرتكم صاعقة** » يمسك على فيه ويناشده الرحم أن يكف مخافة أن يقع به العذاب ٠

« اجتمعت قريش يوما فقالوا : انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر فليأت هذا الرجل الذى فرق جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وعاب ديننا ، فليكلمه ولننظر ماذا يرد عليه ٠ فقالوا : لا نعلم أحدا غير عتبة بن ربيعة ، فقالوا : أنت يا أبا الوليد ٠ فأتاه عتبة فقال : يا محمد ٠٠ أنت خير أم عبد الله ؟ فسكت رسول الله ﷺ ، فقال : أنت خير أم عبد المطلب ؟ فسكت رسول الله ﷺ ، فقال : ان كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التى عبت ، وان كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع قولك ، انا والله ما رأينا سخلة (١) قط أشأم على قومك منك ، فرقت جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وعبت ديننا ، وفضحتنا فى العرب ، حتى لقد طار فيهم أن فى قريش ساحرا ، وأن فى قريش كاهنا ، والله ما ننتظر الا مثل صيحة الحبلى أن يقوم بعضنا الى بعض بالسيوف حتى نتفانى ٠ أيا الرجل ان كان بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش مالا ، وان كان انما بك الباءة فاختر أى نساء قريش شئت فلنزوجك عشرا ٠ فقال رسول الله ﷺ : « فرغت » ؟ قال : نعم ٠ قال رسول الله ﷺ : « **بسم الله الرحمن الرحيم ، حم ٠ تنزيل من الرحمن الرحيم** » (٢) حتى بلغ « **فان أعرضوا فقل انذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود** » (٣) ٠ فامسك عتبة على فيه وناشده الرحم ورجع الى أهله ولم يخرج الى قريش ، واحتبس عنهم ، فقال أبو جهل : يا معشر قريش ، والله ما نرى عتبة الا قد صبأ الى محمد وأعجبه طعامه وما ذاك الا من حاجة أصابته ، فانطلقوا بنا ٠ فانطلقوا اليه ، فقال أبو جهل : يا عتبة ٠٠ ما حبسك عنا الا أنك صبأت الى محمد وأعجبك طعامه ، فان كانت بك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن طعام محمد ٠ فغضب عتبة وأقسم الا يكلم محمدا أبدا وقال : والله لقد علمتم أنى من أكثر قريش مالا ، ولكنى أتيته وقصصت عليه القصة ، فأجابنى بشىء والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر وقرأ السورة الى قوله : « **فان أعرضوا فقل انذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد** »

---

(١) السخلة : ولد الشاة ٠ والسخل من الرجال ـ جمعه سخل ـ : المرذول الضعيف القاموس ج ٣ ص ٤٠٦ ٠

(٢) فصلت : ١ ، ٢ ٠ (٣) فصلت : ١٣ ٠

وثمود » فأمسكت بفيه وناشدته الرحم أن يكف ، وقد علمتم أن مجمدا اذا قال شيئا لم يكذب ، فخشيت أن ينزل بكم العذاب ، وفى رواية : يا معشر قريش أطيعونى واجعلوها لى ·· خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ · فان تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وان يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به · قالوا : سحرك يا أبا الوليد بلسانه ، قال : هذا رأيى فاصنعوا ما بدا لكم (١) ·

« اذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا الا الله » ·

جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ، أى من كل جانب ، وهى كناية عن كثرة الرسل الذين أرسلوا اليهم ، والكناية أبلغ لتصويرها للمعنى وتأكيده · وفى النص على كثرة الرسل ما يبرر استحقاقهم للعذاب وأنهم دعوا مرات كثيرة وعلى أيدى رسل كثيرين ، ومع ذلك ظلوا على صدهم للرسل وعدم الاستجابة لهم ·

« ألا تعبدوا الا الله » نفس ما يدعو اليه الرسول ﷺ قريشا ، وهو وحدانية الله · فدين الله واحد ورسله جميعا ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ يصدرون عن مشكاة واحدة ، وفيه اشارة الى استحقاق مكذبى رسولنا ﷺ نفس العقوبة التى نزلت بمكذبى الرسل السابقين ، فالجريمة واحدة وهى الاشراك بالله ·

« قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فانا بما أرسلتم به كافرون » حكاية لردهم على رسلهم · أى قالوا : لو شاء ربنا ارسال رسل لأنزل ملائكة · ففيه ايجاز بالحذف ، وسر بلاغة الحذف هنا يرجع الى ما فيه من البيان بعد الابهام ذلك أن قوله تعالى : « لو شاء ربنا » يلقى فى نفس السامع أن المشيئة قد علقت بشىء ، فهو ينتظر بيانا له · وعندما يأتى قوله تعالى : « لأنزل ملائكة » يتلقاه السامع بعد تطلعه اليه ، وفى هذا من اللطف والبلاغة ما لا يكون اذا لم يتقدم ما يحرك النفس اليه ويثير تطلعها لمعرفته · فهم قد أبوا الاستجابة محتجين بأن الدعاة بشر مثلهم ، متعامين عما يقدمه هؤلاء من معجزات دليلا على صدقهم ، يلزمهم بتصديقهم · « لأنزل ملائكة » أى لأرسل ملائكة · وعبر بالانزال بدلا من الارسال لأنه لما كان ارسالهم بطريق الانزال قيل « لأنزل » · « فانا بما أرسلتم به كافرون » أخبروا عن أنفسهم بالكفر بهذا التعبير المؤكد بـ « أن » ، واسمية

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٩٠ ـ ٩١ ·

الجملة التى تفيد الاستمرار والثبوت ثم بتقديم المتعلق بالكفر « بما أرسلتم » ، ثم التعبير ـ بما ـ الموصولة للنص على صلته ولتوضيح المكفور به توضيحا كاملا · وذلك اشارة الى اصرارهم وعنادهم وقولهم « أرسلتم » ليس اقرارا منهم بالارسال لأنه مخالف لاعتقادهم ، فالأصل حسب اعتقادهم أن يقولوا « بما جئتم به » ولكنهم عبروا بالارسال مجاراة لكلام الرسل وفيه تهكم بهم · ومثله قول فرعون : « ان رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون » (١) ·

« فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ، أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة ، وكانوا بآياتنا يجحدون · فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة أخزى ، وهم لا ينصرون » ·

هذه الآيات تفصيل لما سبق اجماله من قصة عاد وثمود · وفى التفصيل بعد الاجمال استغلال لعنصر التشويق ، لأن النفس اذا ألقى عليها الكلام مجملا استشرفت الى معرفة تفاصيله ، وتظل متطلعة بكل حواسها الى ما سيلقى اليها فاذا سيق الكلام بعد ذلك مفصلا تمكن فى النفس ووصل الى أعماقها ·

« فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق » تلك هى جريمتهم : استكبروا فى الأرض وتعالوا على أهلها دون مبرر لهذا التعالى والتكبر ، بل ظلما وعتوا بغير الحق · فقد كان الواجب عليهم أن يكون ما هم فيه من قوة ومنعة حافزا لهم على الاعتراف بفضل الله عليهم وشكره على نعمته لا سبب لأن يتكبروا ويطغوا ·

« وقالوا من أشد منا قوة » هكذا أعمتهم القوة ، وغرهم السلطان ، فأنكروا أن يكون هناك من هو أقوى منهم ، ومادام كذلك فلهم أن يتيهوا بقوتهم ويتطاولوا ببأسهم · ولكن القرآن الكريم لا يمهلهم بل يسوق اليهم بدهية لا يستطيعون انكارها « أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة » ؟يالها من سخرية بهم ·· كيف يغفلون عن هذه الحقيقة الواضحة ؟ فالله هو الذى خلقهم ، أليس الخالق أقوى من المخلوق ؟ ثم نلاحظ أنه لم يضف الى الصلة خلقه سبحانه للسموات والأرض وما فيهن ، فالقضية لا تحتاج الى كل هذا ، فهم يدلون بقوتهم مع أنهم أنفسهم وما هم عليه من

---

(١) الشعراء : ٢٧ ·

قوة انما خلقه الله وأفاضه عليهم ليبلوهم به ، ونلاحظ أنه استعمل كلمة « قوة » بالنسبة لله تعالى والمراد بها ـ القدرة ـ وفيها مشاكلة لأنها وقعت في حيز وصفهم أنفسهم بالقوة ولفظ ـ القوة ـ أبلغ في مقام الترهيب ·

« **وكانوا بآياتنا يجحدون** » تسجيل عليهم أنهم كانوا يوقنون بصدق الآيات الدالة على وحدانية الله ولكنهم يجحدونها عتوا واستكبارا · « **وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا** » (١) · وهذا دليل آخر على استحقاقهم ما نزل بهم من عقوبة وما حاق بهم من عذاب ·

« **فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا** » ·· أخذ في وصف العذاب الذي نزل بهم جزاء كفرهم واستكبارهم ، وكان العذاب ريحا باردة شديدة تصوت في هبوبها ، ولفظ « **صرصرا** » يحكي بجرسه صوت الريح في عصفها المدوي التي تقتلع أمامها كل ما يصادفها ولا تدع شيئا أتت عليه الا جعلته كالرميم ، ثم ان هذه الريح لم تستمر ساعة أو يوما بل أياما طوالا : سبع ليال وثمانية أيام حسوما : وهذه الأيام والليالي نحسات ، لا يتخللها ما يلوح بأمل ، وواضح ما في « نحسات » من مجاز مرسل ، يفيد المبالغة في اثبات الصفة وشمولها ·

« **لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا** » والعذاب لا يذاق ولكنه عبر بالاذاقة مبالغة في وقع العذاب عليهم واحساسهم به كأنه غصص يتجرعونها مكرهين ·

وأضاف العذاب الى الخزي وهو الذل والاستكانة على أنه صفة له ، كأنه قال عذاب خزي ، كما تقول : فعل السوء تريد الفعل السيىء · وهو اسناد مجازي اذ أسند الى المصدر ما حقه أن يسند الى اسم الفاعل ، والوصف بالمصدر فيه مبالغة في اثبات الصفة لأن العذاب أصبح هو الخزي نفسه والعار ، وفرق بين هذا وبين أن يصفهم هم بالخزي والعذاب مخز لهم ·

ثم لنتأمل كيف جاءت العقوبة مطابقة للجريمة ، فما ربك بظلام للعبيد فالاستكبار والاستعلاء عقوبته الذل والاستكانة ، والتباهي بالقوة جزاؤه القهر وتدمير ما يعتزون به · ذلك جزاؤهم في الدنيا وحدها ، ولكن الأمر لن يقف عند ذلك ، بل انه خزي متصل وعذاب دائم ، « **ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون** » فعذاب الآخرة أشد اذلالا لهم · ثم من لهم هناك لينصرهم

---

(١) النمل : ١٤ ·

ولم يستطيعوا فى الدنيا أن يمتنعوا بقوتهم من عذاب الله ؟ وهـذا تعريض بهم وسخرية منهم ٠

وفى جمع الآيات بين العذاب الحسى ٠ الذى توقعه الصاعقة بهم ، والعذاب المعنوى المتمثل فيما يصيبهم من خزى وذل واستكانة ، فيه احاطة بكل ما يثير الفزع فى النفس ويملؤها رهبة وهلعا ، علها تثوب الى رشدها ، وتتطهر مما يعتمل فيها من الأحقـاد ونوازع الاسـتعلاء لتتجه الى الدعوة مستجيبة راضية بعد أن انكشف عنهـا أقنعـة الباطل ٠

« **وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فاخذتهم صـاعقة العـذاب الهون بما كانوا يكسبون ٠ ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون** »

وأما ثمود فهديناهم أى دللناهم على الحق بنصب الآيات الكونية ، وارسال الرسل وانزال الآيات التشريعية على الرسل وابلاغهم بها ٠ « **فاسـتحبوا العمى على الهـدى** » هداية الله لهم هى ارشادهم وترك الاختيار لهم ، ان شاءوا انتفعوا بالارشاد واسـتجابوا للدعوة وحققـوا الهداية فى أنفسـهم بالفعل وصـاروا مهديين وان شـاءوا أبوا وظلوا فى الضـلال ٠ وهؤلاء لم يستجيبوا بل آثروا الضلال على الهداية ٠ وقد عبر هنا عن الضلال بالعمى على سبيل الاستعارة ، بجامع عدم الاهتداء فى كل ٠ ولاشك فى أن الاستعارة أقوى فى تأكيد المعنى ، وهو هنا الانحراف عن الطريق الصحيح والتخبط وعدم الوصول الى الهدف ، الى جانب ما فى لفظ العمى من تنفير وتقبيح لمسلكهم ٠ كما تلاحظ المطابقة بين العمى والهـدى وما يبرزه من تنـاقض يقتضيه مقام الترغيب والترهيب ٠

« **فاخذتهم صـاعقة العذاب الهون** » المراد حلت بهم صاعقة العـذاب والتعبير بالأخـذ هنا تصوير للمعنى يضفى عليه عنفا وشدة يقتضيها مقام الترهيب ووصف العذاب بالهون للمبالغة والتهويل ولاضـافة عنصر الألم النفسى الى الألم المـادى ٠

« **بما كانوا يكسبون** » ذلك جزاء وفاقا لمـا ارتكبوه من جرائم منكرة ٠ ثم يحرص القرآن الكريم على أن يؤنس المؤمنين ويقضى على ما قد يحيك فى نفس بعضهم من أن هذه الصـاعقة قد تجتاح فى طريقها الصالح والطالح والبرىء والمسىء فيقول : « **ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون** » فهؤلاء فى رعاية الله وكنفه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ٠ فقد قدموا مـا يقيهم هـذا الشر ٠

ثم تنتقل الآيات الى ما ينتظر هؤلاء الكافرين وأمثالهم من عذاب فى الآخرة بعد ذكر ما وقع بهم فى الدنيا ·

« ويوم يحشر أعداء الله الى النار فهم يوزعون · حتى اذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وابصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون · وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ، قالوا انطقنا الله الذى انطق كل شىء وهو خلقكم أول مرة واليه ترجعون · وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون · وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين · فان يصبروا فالنار مثوى لهم وان يستعتبوا فما هم من المعتبين » (١) ·

« ويوم يحشر أعداء الله الى النار فهم يوزعون » هذا تصوير لما سيكون يوم القيامة حيث يحشر أعداء الله الى النار ، والحشر الجمع · واللفظ مشعر بكثرة العدد كثرة يضيق بها المكان ويحشرون فيه حشرا ، وهذه الكثرة تبدو أيضا فى قوله تعالى : **« يوزعون »** فمعناه يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا كما أن التعبير أيضا بـ **« يوزعون »** فى صيغة المضارع يرسم صورتهم كأنها مشاهدة وهم يساقون كالقطيع ويدفعون الى النار ، ولكما تباطأوا ـ شأن المقبل على ما يكره ـ دفعوا مكرهين ، ودعوا اليها دعا · هذا الموكب الذليل المهين هو موكب **« أعداء الله »** والتعبير عنهم بأنهم أعداء الله لبيان علة ما يحيق بهم من ألوان العذاب · وهل هناك جريمة أبشع من أن يعادى الانسان خالقه ومربيه ؟ فلا مجال لاشفاق المشفقين ، انهم **« أعداء الله »** ، ثم ان وصفهم بأنهم أعداء الله يبين أن هذا مصير كل الكافرين ·

« الى النار » هم لا يساقون الى النار وانما الى موقف الحساب اذ فيه يتم السؤال والجواب وتشهد الجوارح قبل أن يلقى بهم فى النار ، وانما عبر عن موقف الحساب بالنار للايذان بأنها مصيرهم وعاقبة أمرهم وأنهم مشرفون على دخولها ، ولا محيص لهم عنها · أو لأن حسابهم يكون على شفيرها فكأنهم يساقون اليها ·

بالاضافة الى تعجيل مساءتهم بذكر النار ·

والآية قد رسمت كما ترى ـ بكلماتها المصورة ـ صورة شاخصة للخيال يتابع حركتها وهو يرى الجمع الهائل يساق قسرا الى مصيره المفزع ، ولتتابع المشاهد ·

---

(١) فصلت : ١٩ ـ ٢٤ ·

« حتى اذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون » يا لها من مفاجأة تنقطع عندها كل أسباب النجاة ·· وماذا بقى لهم ليعتذروا به ، وشهودهم من أنفسهم تروى عنهم ما حسبوه سرا لا سبيل الى فضحه والمراد بالجلود الجوارح ، فالرجل تقول سعيت ، واليد تقول بطشت · وقيل المراد بها الفروج ، فهى كناية تليق بسمو الأدب القرانى فى التعبير · و « ما » فى قوله تعالى « حتى اذا ما جاءوها » لتأكيد أن وقت مجيئهم الى النار يكون ـ لا محالة ـ وقت الشهادة عليهم ، ولا وجه لأن يخلو منها » (١) كما أن التعبير بـ « اذا » دون « ان للاشارة الى تحقق دخولهم النار ·

« وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا » لقد انقطع أملهم فى الدفاع عن أنفسهم وانكار جرائمهم ، فلم يبق لهم الا أن يتوجهوا باللوم الى جوارحهم استعظاما لموقفها منهم · انه تصرف اليائس ، يدع أصل القضية وينفس عما يضيق به بما يشاء من لغو الحديث ، وهو يعلم أنه كلام لن يقدم أو يؤخر شيئا فى موقفه · وواضح أن ما فى الاستفهام من انكار وتوبيخ وتعجب يترجم عن مشاعرهم وقد فوجئوا بما لم يكن فى حسبانهم ·

« قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء » لقد أقدرنا الله على النطق فشهدنا عليكم بما عملتم بواسطتنا من القبائح · وليس ذلك عجيبا على قدرة الله ، فهو الذى أنطق كل ناطق ·

« وهو خلقكم أول مرة واليه ترجعون » فليس من العجيب أن ينطقنا الله وهو الذى قدر على خلقكم أول مرة وعلى اعادتكم بالبعث للحساب مرة أخرى · فأى مجال لاكباركم وتعجبكم ؟

وقد عبر بقوله« ترجعون » بصيغة المضارع مع أن هذه المحاورة بعد البعث والرجع « لأن المراد بالرجع ليس مجرد الرد الى الحياة بالبعث ، بل ما يعمه وما يترتب عليه من العذاب الخالد المترقب عند التخاطب ، على سبيل تغليب المتوقع على الواقع ، كما أن فيه رعاية للفواصل » (٢) ·

---

(١) الكشاف ج ٣ ص ٤٥٠ ·

(٢) تفسير أبى السعود ج ٥ ص ٢٢ ·

كما أن تقديم الجار والمجرور « اليه » مفيد للقصر لتأكيد أن ذلك لابد كائن ولا مهرب منـــه ٠

« **وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم** » لم يكن هــذا فى حسبانكم ، ولم تكونوا تتوقعون أن تشهد عليكم جوارحكم ، ولم تعدوا لذلك عدته بأن تستتروا عنها حتى لا تشهد عليكم لأنكم لا تؤمنون بالبعث نفسه ، فكيف تتحرزون مما يواجهكم فيه وأنتم منكرون له ؟ ثم انكم لا تستطيعون أن تستتروا منها حتى لو أردتم ، كيف وهى بعضكم وبها تكسبون ما تأتون من آثام ؟

« **ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعمــلون** » ان جــريمتكم التى أورثتــكم هذا العــذاب وســاقتكم الى هــذا المصــير هى أنكم ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون ، وهى الأعمــال الخفيــة ٠ ولذلك اجترأتم على ما فعلتم ٠

« **وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين** » ذلكم بلام البعد إيذانا ببعد منزلة ظنهم هذا فى الشر والسوء ٠ هذا الظــن منكم أوردكم موارد الهلاك فأصبحتم فيما أنتم فيه من الخسارة والشقاء ٠

ان هــذه حكاية لمــا سيقال لهم من جهته سبحانه وتعالى توبيخا لهم ثم أى شعور برقابة الله واطلاعه على البواطن يوقظه هــذا التعبير الكريم فى نفس المؤمن أنه دائما تحت رقابة الله وفى دائرة علمه ، لا سبيل الى ستر شىء عنه ٠٠ ان المؤمن الذى يستشعر دائما هــذا المعنى ويعيش فى ظله سيجد نفسه بعيدا عن كل موطن لا يحب أن يراه الله فيــه ، وهذا هــو جوهر السلوك الفاضل ٠ « ألا يراك الله حيث نهــاك ، وألا يفتقــدك حيث أمــرك » ومن هنا جــاء النص على أولئك الذين « **يســتخفون من النــاس ولا يستخفون من الله وهو معهم اذ يبيتون مالا يرضى من القول** » (١) ٠

وعندما يتحدث العلم الحديث اليوم عن اختزان الذكريات الســابقة كاملة فى خلايا المخ ٠ ويثبت بالتجربة المشاهدة أنه يمكن باثارة بعض هــذه الخــلايا أن يستعيد صــاحبها مامر به ويعيشه مرة أخرى بكل تفاصــيله وملابساته وأحاســيسه ٠ أقول عندما ما يتحدث الطب الحــديث عن ذلك

---

(١) النساء : ١٠٨ ٠

فلا يملك منصف الا أن يخفى جبينه اجلالا لهذا الذكر الحكيم ايمانا به وثقة فى صدقه واقرارا بمنزلته · وأنى لمحمد الأمى مثل هذه الأسرار الخفية وهى ليست مما يخطر على خيال ·· وتمضى الأيام ويؤكد علماء القرن العشرين أنها حقيقة لا جدال فيها ·

« **فان يصبروا فالنار مثوى لهم** » لقد انتهى المشهد كله الى غايته واستقر أولئك المجرمون فى النار ، ويأتى هذا التعقيب الساخر بأسلوب الالتفات من الخطاب الى الغيبة ليحكى عنهم ، فهم قد بعدوا عن حيز الخطاب والقوا فى غاية دركات النار ، ثم أى صبر هذا ؟ انه صبر على النار تكون لهم محل ثواء واقامة أبدية لا سبيل الى الفكاك منها ·

ويلاحظ التعبير بـ « **ان** » دون « اذا » للايماء الى أن صبرهم غير متوقع ، وكذلك تقديم لفظ ـ النار ـ للتعجيل بما يسيئهم ·

« **وان يستعتبوا فما هم من المعتبين** » ان سألوا الرجوع الى ما يحبون جزعا مما هم فيه فلن يستجاب لهم · لقد قطعت الآمال ، وحسم الأمر ·

وهكذا تركوا هناك يصارعون الأهوال ، وتمضى الآيات الى شأن آخر وهكذا صور القرآن الكريم حالهم وعرضها هذا العرض المؤثر المفزع ، انذارا للمعاندين ، وترهيبا للمشركين · علهم يبادرون الى ما يجنبهم هذا المصير ·

« **ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد** »(١) ·

● **أسلوب الترغيب :**

أولا ـ الترغيب بما أعد للمؤمنين فى الدنيا :

قال تعالى : « **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى**

---

(١) سورة ق : ٣٧ ·

لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فاولئك هم الفاسقون » (١) ٠

جاء فى تفسير ابن كثير « قال الربيع بن انس عن أبى العالية فى قوله تعالى « **وعد الله الذين آمنوا ٠٠٠** » الآية ، قال : كان النبى ﷺ وأصحابه بمكة نحوا من عشر سنين يدعون الى الله وحده ، والى عبادته وحده لا شريك له سرا ، وهم خائفون لا يؤمرون بالقتال ، حتى أمروا بالهجرة الى المدينة فقدموها ، فأمرهم الله بالقتال فكانوا بها خائفين يمسون فى السلاح ويصبحون فى السلاح ، فصبروا على ذلك ما شاء الله ، ثم ان رجلا من الصحابة قال : يا رسول الله ٠٠ أبد الدهر نحن خائفون هكذا ؟ أما يأتى علينا يوم نأمن فيه ونضع عنا السلاح ؟ فقال رسول الله ﷺ : « لن تصبروا الا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم فى الملأ العظيم محتبيا ليست فيه حديدة » (٢) ٠ وأنزل الله هذه الآية ٠

فأظهر الله نبيه على جزيرة العرب فآمنوا ووضعوا السلاح ، ثم ان الله قبض نبيه ﷺ فكانوا كذلك آمنين فى امارة أبى بكر وعمر وعثمان حتى وقعوا فيما وقعوا فيه فأدخل عليهم الخوف ، فاتخذوا الحجزة والشرط (٣) وغيروا فغير بهم » (٤) ٠

تشير هذه الرواية فى صدرها الى سبب نزول هذه الآية الكريمة ٠ وفى نهايتها يوضح صاحبها أن وعد الله قد تحقق للمسلمين ، حتى اذا ما غيروا غير الله ما بهم ٠ فهذا الوعد معلق بشرط وهو قول الله تعالى : « **يعبدوننى لا يشركون بى شيئا** » ومن هنا كان اختيارنا لها نموذجا للترغيب فى الايمان بالله وتوحيده ، وانها عامة مطردة كسنة لا تتخلف ما تحقق شرطها ٠

---

(١) النور : ٥٥ ٠

(٢) احتبى : جمع بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها ٠ والمراد بقوله « ليست فيه حديدة » أنهم سيكونون فى غير حاجة الى السلاح وهذا كناية عما سينعمون به من أمن ٠

(٣) الحجزة : الظلمة الذين يمنعون بعض الناس عن بعض ويفصلون بينهم بالحق جمع حاجز ٠ القاموس المحيط ص ١٧٨ ج ٢

والشرط : كصرد : طائفة من أعوان الولاة ، وهو شرطى كتركى وجهنى سموا بذلك لأنهم أعلموا أنفسهم بعلامات يعرفون بها القاموس ص ٣٨١ ج ٢

(٤) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٣٠١

ولننظر فيما بها من بلاغة ٠

« **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات** » وعده الأمر وبه ، خيرا أو شرا ٠ فاذا اسقطا قيل فى الخير « وعد » وفى الشر « أوعد » (١) ٠ واسناد الوعد الى الله للاشارة الى تحققه ووقوعه ، فالله لا يخلف وعده وذلك يحمل على تصديقه والعمل بمقتضاه ، وعبر عمن تعلق بهم الوعد باسم الموصول ليفيد أنه شامل لكل من تحققت فيه الصفات التى تنص عليها الصلة وهى الايمان والعمل الصالح ، فكل من اتصف بالايمان بالله بعد الكفر وعمل صالحا فهو داخل فى الوعد مستحق له ، من أية طائفة كان وفى أى وقت كان ٠ فهى سنة من سنن الله فى خلقه لا تتخلف ٠ وفى هذا ما يجدد الآمال دائما لدى المسلمين وينبههم الى سبب ما يصيبهم عبر تاريخهم من انحسار سلطانهم ، وتآكل دولتهم ، وتداعى الأمم عليهم ، وسلبهم الأمن فى أوطانهم وعيشهم فى خوف دائم ٠ فذلك كله لأنهم فرطوا ، ولم يوفوا بما يجعلهم أهلا لتحقيق وعد الله لهم ٠ فاذا أرادوا الخلافة فى الأرض والأمن وتمكين الدين ، فالسبيل واضحة امامهم وسنة الله تناديهم : أن وفوا بواجبكم ليتحقق لكم ما تريدون ، كما أن فيها ترغيبا لغير المسلمين فى الاسلام ليحصلوا على ما تعدهم به ٠

و « من » فى قوله « **منكم** » تبعيضية ، باعتبار الخطاب موجها لعامة المشركين لدعوتهم الى الايمان وترغيبهم فيما يحقق لهم وعد الله ٠ « ومن جعل الخطاب للنبى عليه الصلاة والسلام وللأمة عموما على أن « من تبعيضية ، أو له عليه السلام ولمن معه من المؤمنين ، على أنها بيانية ، فقد نأى عما يقتضيه سياق النظم الكريم وسياقه بمنازل ، وأبعد عما يليق بشأنه عليه السلام بمراحل »(٢) ٠

وتوسط « **منكم** » بين المعطوفين وهما « **آمنوا** » و « **عملوا الصالحات** » للاشارة الى أصالة الايمان وعراقته فى استتباع الآثار والأحكام المذكورة ، وللايذان بأنه أول ما يطلب منهم وأهم ما يجب عليهم ٠ فهو الأساس الذى لا تقبل الأعمال الا اذا كانت صادرة عنه مرتكزة عليه ٠ وقوله تعالى :

---

(١) القاموس المحيط ٠ ج ١ ص ٢٥٩

(٢) انظر تفسير أبى السعود ج ٤ ص ٧٠

« **وعملوا الصالحات** » جامع لكل ما يقتضيه الايمان بالله من التزام بشريعته ، والحياة فى ظل ما أمر به ونهى عنـــه ٠

« **ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم** » أى يجعلهم خلفاء يتصرفون فيها تصرف الملوك فى ممالكهم ٠ أو يجعلهم خلفا للذين لم يكونوا على حالهم من الايمان والأعمال الصالحة ٠ وهـذا أول ما وعد الله به المؤمنين ٠ ونظم الآيـة الكريمة جمـع مؤكدات كثيرة ، أولها القسم المحـذوف الذى دخلت اللام عـلى جـوابه ، تقديره وعـدهم الله وأقسـم ليستخلفنهم ٠ أو نزل وعد الله فى تحققه منزلة القسم فتلقى بما يتلقى به القسم كأنه قال : أقسم الله ليستخلفنهم ٠ ثم باللام الداخـلة عـلى جـواب القسم ، ثم بنون التوكيد الثقيلة الملحقة بالفعـل ثم بما ذكره من تنظير يؤكد تحقق وعده لهم ، لأنه قد تحقق لمن قبلهم من المؤمنين « **كما استخلف الذين من قبلهم** » وهم الأمم التى تشير اليها الآيات الكريمة : « **ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم الا الله ٠٠٠** » الى قوله تعـالى : « **وقال الذين كفروا لرسـلهم لنخرجنكم من أرضـنا أو لتعودن فى ملتنا ، فأوحى اليهم ربهم لنهـلكن الظالمين ٠ ولنسكننكم الأرض من بعدهم ، ذلك لمن خاف مقـامى وخاف وعيـد** »(١) فهى اذن سنة الله التى تتكرر كلما تكررت موجباتها ٠

والمقام هنا يقتضى كل هذه التأكيدات ، لأهمية الوعد وتمكين الثقـة به فى النفوس ترغيبا لها فى الايمان ٠

« **وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم** » والمعنى ليجعلن دينهم ثـابتا مقررا ، بحيث يستمرون على العمل بأحكامه ، ويرجعون اليه فى كل ما يأتون وما يذرون ٠ وقـد عبـر عن هـذا بالتمكين الذى هو جعل الشىء مكانا للشىء ٠ يقال : مكن له فى الأرض ، أى جعلها مقرا له ، واستعارة التمكين لمعنى التثبيت آكد للمعنى وأقوى فى الدلالة على ثبات الدين وسلامته مـن التغيير والتبديل ، لأنها تخيل أنه شىء مستقر على الأرض بثباتها واستقرارها مع ما فيه من مراعاة المناسبة بينه وبين الاستخلاف فى الأرض ٠ ثم ان تقديم « لهم » على المفعول الصريح وهو ــ دينهم ــ للمسارعة الى بيان كون الموعود به من منافعهم تشويقا اليه وترغيبا لهم فى قبوله عند وروده ٠ واضافة الدين لهم ، وهو دين الاسلام ، ثم وصفه بارتضائه لهم ، تأليف لقلوبهم ومزيد ترغيب فيه وفضل تثبيت عليه (٢) ٠

---

(١) ابراهيم : ٩ ــ ١٤

(٢) انظر تفسير أبى السعود ج ٤ ص ٧١

فاذا أضفنا الى ذلك تلك المؤكدات المتعددة التى تضمنها النظم على مثال ما جاء فى « **ليستخلفنهم فى الأرض** » أدركنا أى اهتمام بتأكيد هذا المعنى وترغيب فيه قد حواه النظم الكريم ٠

على أننا نلاحظ أن الوعد بتمكين الدين ـ وهو أهم الرغائب وأعظمها كان حقه أن يتقدم على الاستخلاف فى الأرض ، ولكنه قدم الاستخلاف « لأن النفوس الى الحظوظ العاجلة أميل ٠ فتصدير المواعيد بها فى الاستمالة أدخل » (١) ٠

« **وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا** » وهنا أيضا نجد التأكيد المناسب لمقام الاهتمام بالمؤكد والحرص على تمكينه فى القلوب ٠ والتعبير بالتبديل مشعر بما هو فيه من خوف دائم ينغص حياتهم ويسلبهم الراحة والاستقرار وذلك للايذان بعظم نعمة الأمن التى يعدهم بها ٠ فهم أدرى الناس بوطأة الخوف وقسوته ٠ ويلاحظ الطباق بين ـ الخوف ـ والأمن ـ ابرازا للتضاد واشارة لعظم ما سيؤتون ، وكذلك تنكير « أمنا » للتعظيم المناسب لمقام الترغيب ٠

« **يعبدوننى لا يشركون بى شيئا** » العبادة تعنى الطاعة والاستسلام وجملة « **يعبدوننى** » حال من الموصول فى قوله تعالى : « **وعد الله الذين آمنوا منكم** » وهى تفيد تقييد ما سبق من الوعود بالثبات على عبادة الله وتوحيده ، أو جملة مستأنفة لبيان المقتضى لتحقيق الوعد ، وهذا سر فصلها عما قبلها ، وعدم الاشراك يعنى افراد الله بالعبادة والطاعة ٠ وجملة « **لا يشركون بى شيئا** » حال من الضمير فى يعبدوننى ، أى يعبدوننى غير مشركين بى فى العبادة شيئا ٠ ونلاحظ تقديم « بى » على مفعول الفعل الصريح وهو « شيئا » للمسارعة الى بيان من يطلب عدم الاشراك به والتعبير ـ بشىء ـ للدلالة على عموم نفى الشركاء أيا كان نوعهم فهى نكرة فى سياق النفى فتعم ماعدا الله تعالى من أشخاص وأشياء وأهواء وذلك للاشارة الى وجوب اخلاص النية وتطهير القلب من كل ما يشوب التوحيد ظاهرا أو خفيـــا ٠

« **ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون** » بعد أن رغبت الآيات فى الايمان ، وقدمت الوعود وأكدتها وبينت أنها سنة الله فى الأمم السابقة

---

(١) تفسير أبى السعود جـ ٤ ص ٧١

ودعت الى التوحيد الخالص مبينة أنه المقتضى لاستحقاق الموعود به ، اتجهت الى التحذير من الكفر بعد هذا الوعد الكريم بما فيه من النعم الجزيلة المستوجبة لغاية الاهتمام بتحصيلها والسعى فى ادراكها ·

وعلى ما اخترناه من أن الخطاب فى الآية موجه لعموم المخاطبين لحملهم على الايمان ، يكون الكفر هنا معناه الاستمرار على الكفر وعدم التأثر بما فى الآيات من الترغيب ، فان الاصرار عليه ـ بعد مشاهدة دلائل التوحيد ـ كفر مستأنف ، واذا اعتبرنا الخطاب موجها للمؤمنين فيكون الكفر هنا هو الكفر بعد الايمان أو معناه كفر النعمة وعدم القيام بحقها · وكلاهما موجب لزوالها ، وأن يسلب الله عنهم هذه النعم التى عددها · ويكون هذا كالتأكيد لما تقدم من توقف حصول هذا الوعد على تحقيق شرطه وهو الايمان والعمل الصالح ·

وجملة « **فأولئك هم الفاسقون** » بما فيها من تأكيد باسميه الجملة وضمير الفصل وتعريف الفاسقين بلام الجنس ، اشارة لعظم جرمهم بكفرهم هذا وتشنيع عليهم ، وأنهم هم المتناهون فى الفسق والخروج عن حدود الايمان بالكفر والطغيان ، لأنهم آثروا الكفر مع توافر دواعى الايمان وموجباته ·

وبعد : فهل للدعاة اليوم والمصلحين أن يستلهموا هذه الآيات لتدلهم على مواطن الداء وسبب العلة فى حياة المسلمين اليوم ؟ هل لهم أن يجعلوا منها منطلقا الى علاج ما يئن المسلمون تحت وطأته من خوف وتخلف وذهاب سلطانهم عن أعز مواطنهم منذ أن فقدوا الأندلس الى حيث انتهوا بفقد الأرض المقدسة ؟ انها سنة الله ، ولن تجد لسنة الله تبديلا ·· ولنطو القلب على ما به من جراح ونواصل الحديث ·

* * *

● **ثانيا ـ الترغيب بما أعد للمؤمنين فى الآخرة :**

قال تعالى : « **والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفسا الا وسعها أولئك أصحاب الجنة ، هم فيها خالدون · ونزعنا ما فى صدورهم من غل تجرى من تحتهم الأنهار ، وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، لقد جاءت رسل ربنا بالحق ونودوا أن تلكم الجنة**

اورثتموها بما كنتم تعملون · ونادى أصحاب الجنة اصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ، قالوا نعم ، فأذن مؤذن بينهم ان لعنة الله على الظالمين · الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة هم كافرون · وبينهما حجاب ، وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ، ونادوا اصحاب الجنة ان سلام عليكم ، لم يدخلوها وهم يطمعون · واذا صرفت أبصارهم تلقاء اصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين · ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم قالوا ما اغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون · أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ، ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا انتم تحزنون · ونادى اصحاب النار اصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء او مما رزقكم الله ، قالوا ان الله حرمهما على الكافرين · الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا ، فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون » (١) ·

هذه آيات من سورة الأعراف ، وهى سورة مكية · والدعوة فى مكة لم تكن تملك من عوامل الجذب اليها سوى ما فى آيات الذكر الحكيم من تأثير فى النفوس وقدرة قادرة على استمالتها · فبه كان رسول الله ﷺ يدعو منذرا ومبشرا ، والصراع يحتدم بين قرآن ينفذ سحر بيانه الى القلوب ، وطغاة يصدون عن سبيل الله ، ويغالبون فطرتهم التى تذعن له طائعة لولا استعلاء القوم وعنادهم ·

وهذه الآيات جاءت عقب آيات تصور مصير الكافرين فى الآخرة ، وأن « **لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش ، وكذلك نجزى الظالمين** » (٢) ·

ثم تاتى هذه الآيات لترسم صورة أخرى لما أعد للمؤمنين فى الآخرة من الكرامة والفضل · وهى هنا صورة زاخرة بالحركة والمشاهد والحوار والايحاء وتصوير المشاعر · فهى تصور مشهد أصحاب الجنة وقد اطمأن بهم المقام فيها ثم تتبعه بمشهد آخر لأصحاب النار ، ثم ترسم بين المشهدين مشهدا ثالثا لأصحاب الأعراف الذين قصرت بهم أعمالهم فلم يدخلوا الجنة ، وتقدمت بهم عن أن يكونوا من أهل النار · ثم تحكى ما بين الثلاثة من حوار موح ، وتصور خلجات نفوسهم ومشاعرهم · وتعرض ذلك كله فيما يناسبه من صور البيان وفنون البلاغة ·

---

(١) الاعراف : ٤٢ ـ ٥١ (٢) الاعراف : ٤١

« **والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفسا إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة ، هم فيها خالدون** » ٠

هؤلاء هم الفريق الأول ٠ الذين آمنوا بكل ما يجب الايمان به ، وعملوا الصالحات التى شرعها الله وبينتها آياته ، فصلة الموصول تجمع هذين الوصفين اللذين يؤهلان لما سيأتى من الفضل والكرامة ، هؤلاء هم أصحاب الجنة انها جنتهم وهم أصحابها ، وعبر بـ « أولئك » وما فيها من معنى البعد للاشارة الى بعد منزلتهم فى الفضل والشرف ٠ وأنهم استحقوا ذلك بسبب ما تقدم من اتصافهم بالايمان والعمل الصالح ٠

« **لا نكلف نفسا الا وسعها** » انها جملة معترضة بين المبتدأ وخبره وضعت حيث هى لتؤدى دورا فى المعنى ، وهو الترغيب فى اكتساب مايؤدى الى هذا النعيم المقيم ببيان أنه سهل يسير ، وأنه لا يخرج عن طاقة من يرغب فى هذا الجزاء العظيم ، ثم ان فى توسطها بين المبتدأ وخبره ما يشد الانتباه الى مضمونها ٠ فالمخاطب يتطلع الى الخبر عندما يذكر له المبتدأ ، فاذا ما خوطب بغيره أحدث ذلك لديه اهتماما بذلك الذى لم يتوقعه ٠

« **هم فيها خالدون** » اضافة جديدة تعطى الجزاء بعدا جديدا انه نعيم دائم لا ينغصه خوف انقضائه وفواته ، انه الخلود الذى يوحى بأعمق مشاعر السكينة والسلام ويغمر بهما القلوب ٠ ويلاحظ استعمال ـ فى ـ الدالة على الظرفية ، والتى تصور حالتهم وانغماسهم فى نعيم الجنة مبالغة فى الترغيب ٠

« **ونزعنا ما فى صدورهم من غل** » سمة أخرى لأهل الجنة ٠ لقد طهرت قلوبهم مما كان بها من « غل » وخلت حياتهم فى الجنة من كل ما يكدر الحياة من مشاعر البغضاء والحقد وغيرها ، فهم فى الجنة متحابون متصافون متوادون ٠ ثم لنتأمل التعبير عن تطهير القلوب من الغل بقوله : « **ونزعنا ما فى صدورهم من غل** » فلفظ « **نزعنا** » يجسم المعنى ويجعل الغل كأنه شىء مادى ينزع ٠ كما أنه يوحى بتمكن الغل من النفوس حتى أنه ليحتاج الى أن ينتزع انتزاعا لتخلص القلوب منه ٠ كما أن التعبير بصيغة الماضى بدل المضارع للايذان بتحققه كأنه قد وقع ، وكذلك التعبير بالصدور عن القلوب ، على سبيل المجاز المرسل ، يوحى بغاية المطهر من الغل ، كأن صدورهم كلها ـ لا قلوبهم فقط قد نزع منها الغل ، وملئت حبا

ووداً · وكل هذه الخصائص التى تضمنها التعبير وأوحى بها مما يقتضيه مقام الترغيب الذى سيقت له الآية الكريمة ·

« **تجرى من تحتهم الأنهار** » لمسة جديدة تضاف للصورة لتوحى بما هم فيه من نعيم حسى بجانب ما سبق من نعيم روحى ، تجرى من تحتهم الأنهار فتملأ الجو كله نسيما وألحانا وعبيرا ، هذا النعيم الروحى والحسى هو الذى أنطقهم قائلين « **الحمد لله** » ، انه التأثر العميق الذى يترجم عنه اللسان ··

« **وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، لقد جاءت رسل ربنا بالحق** » ·

« **وقالوا** » بصيغة الماضى استمرار لتصوير الأمر كأنه قد حدث وتحقق ـ تأكيدا لتحققه · « **الحمد لله** » هتاف يعبر عن العرفان والشكر لله وحده ، فهو المتفضل بكل ما هم فيه من سعادة · « **الذى هدانا لهذا** » أى أرشدنا ووفقنا لما جزاؤه هذا الذى نحن فيه ، فهذا ايجاز بالحذف ، والأصل « الحمد لله الذى هدانا للايمان الذى جزاؤه هذا النعيم » ولكن التعبير الكريم آثر الحذف تصويرا لحالهم · فهم فى بهجتهم بالنعيم وانبهارهم به شغلوا عن تذكر ما كان سببا فيه · كأن الله قد هداهم الى النعيم فحمدوا الله عليه · « **وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله** » اللام فى « **لنهتدى** » لتأكيد النفى · أى أنهم يرجعون هدايتهم الى الله وحده ويؤكدون نفيها عمن سواه · وفى الجملة حذف فى ثلاثة مواضع ، الأول متعلق « **نهتدى** » ، والثانى متعلق « **هدانا** » وسر الحذف هو ظهور المراد به أو لارادة التعميم أى ما كنا لنهتدى لما جزاؤه هذا لولا أن هدانا الله الى هذا المطلب الأعلى أى المطلب من المطالب الذى هذا من جملتها · والثالث جواب « لولا » ، وحذف لدلالة ما قبله عليه ·

« **لقد جاءت رسل ربنا بالحق** » اللام داخلة على جواب قسم مقدر تأكيدا للثقة فى قلوبهم ، وأى ثقة أعظم من أن شاهدوا بأنفسهم وتحقق لهم ما وعدوا به ؟ انه أيضا تعبير عن الفرحة بما هم فيه ، وتصوير لاحساسهم بما نالوه ، واغتباطهم به ·

« **ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون** » ·

ونودوا بالبناء للمجهول لأن معرفة المنادى مما لا يتعلق به غرض فى المقام وانما الاهتمام موجه الى المنادى به ، و « **تلكم** » بلام البعد رفعة لشانها وتنزيل بعد مكانتها منزلة البعد الحسى ، أو للاشعار **بانها تلك** الجنة التى وعدوها فى الدنيا · « **اورثتموها** » وحقيقة الارث انتقال الملك من سابق بعد موته الى لاحق ، وهو غير متحقق هنا فهو استعارة لمعنى ملكهم لها وتصرفهم فيها تصرفا كاملا كتصرف الوارث فى الموروث ، ولا يخفى ما فيها من تاكيد للمعنى حيث جعلها ميراثا لا ينازعهم أحد فيه · « **بما كنتم تعملون** » أى تفضل الله بها عليكم بواسع رحمته ، جزاء لأعمالكم فى الدنيا ، وفى مجال الدعوة فان فى هذا النداء ما يشد من عزيمة كل متردد كى يدع تردده وينطلق الى العمل الذى يورثه هذا الخير كله . والذى لا يعجزه ولا يخرج عن طاقته ·

وفى النص على أن الجنة هى جزاء الايمان والعمل الصالح ابراز لهدف الآيات وهو الدعوة للتوحيد والعمل بمقتضاه وترغيب أى ترغيب فيه ·· وكأن القرآن الكريم يقول لمن يدعوهم – بعد أن عرض المشهد وما يوحى به من ألوان النعيم الحسى والروحى – يقول :ان كنتم حقا حريصين على ادراك هذا الفضل فاعملوا ، انه ثمرة لما تقدمونه من الايمان والعمل الصالح ·

تلك هى اللمسة الأخيرة فى هذا المشهد الذى يصور المؤمنين وقد انتهى بهم المطاف الى هذا النعيم المقيم ، وتمضى الآيات لتضيف اليه مشهدا جديدا يتكامل معه ويدعم هدفه فى الترغيب ·

« **ونادى اصحاب الجنة اصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ، قالوا نعم ، فاذن مؤذن بينهم ان لعنة الله على الظالمين · الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة هم كافرون** » ·

« **ونادى اصحاب الجنة اصحاب النار** » فاصحاب النار هناك على مرأى ومسمع من اصحاب الجنة ، يرى كل منهما الآخر ويسمعه ، أما اصحاب الجنة فهذه فرصتهم التى تتيح لهم أن يسخروا ممن طالما سخروا منهم « **ان الذين اجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون · واذا مروا بهم يتغامزون** » (١) هذا فى الدنيا ، أما فى الآخرة فهو القصاص العادل

---

(١) المطففين : ٢٩ . ٣٠

« **فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون** » (١) · هكذا يكون عدل الله الذى يشفى صدور المؤمنين · والتعبير هنا بـ « **أصحاب النار** » كما عبر هناك بـ « **أصحاب الجنة** » للاشارة الى ارتباطهم بها ولزومهم لها ، كما يرتبط المالك بملكه ، وفى هذا تحسير لهم ، وزيادة فى غمهم ·

« **أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ، قالوا نعم** » انها السخرية المرة ، فالمؤمنون على ثقة من تحقيق وعيد الله للكافرين كما حقق وعده لهم ، ولكنهم يسألون اظهارا لما هم فيه من نعيم وتحسيرا لأصحاب النار على ما فاتهم · ونلاحظ أن مفعول « وعد » الثانية محذوف ، اسقاطا لهم عن رتبة التشريف بالخطاب عند الوعد · ويأتى جواب الكافرين « **نعم** » انه اقرار الذليل الذى لم يعد يملك القدرة على التبجح والعناد ··

« **فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين · الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة هم كافرون** » ·

بعد هذا الحوار المصور بين أصحاب الجنة وأصحاب النار ، يستمع الفريقان لصوت يعلن : « **أن لعنة الله على الظالمين** » ، تماما كما اختتم المشهد الأول بقوله تعالى : « **ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها** » · انها الحقيقة القاطعة تساق فى موضعها لتؤدى دورها فى حسم الأمور وتقريرها « **لعنة الله على الظالمين** » · فما هم فيه هو جزاء ما قدموا من ظلم ، وأعظم الظلم هو الشرك · « **ان الشرك لظلم عظيم** » (٢) ·

ثم يتبع ذلك بثلاثة أوصاف لهم : فهم « **يصدون عن سبيل الله** » لم يكتفوا بعدم انقيادهم للدعوة بل يصدون غيرهم عنها ، ويحاولون تشويهها ويصفونها بالميل عن الحق ، كأنها معوجة مائلة ، ولا يؤمنون بالبعث واليوم الآخر ·

ولنتأمل التعبير بلفظ « **يصدون** » ، « **عوجا** » وقدرة اللفظين على التخييل والتجسيم · وكذلك ما فى قوله « **وهم بالآخرة هم كافرون** » من تأكيد باسمية الجملة ، وضمير الفصل ، وتقديم الجار والمجرور « **بالآخرة** » · للاهتمام به نظرا لأنهم يعانون ما فيها ، وقد كانوا يكفرون بها ·

---

(١) المطففين : ٣٤ (٢) لقمان : ١٣

« **وبينهما حجاب ، وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ، ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم ، لم يدخلوها وهم يطمعون** » ٠

انه المشهد الثالث تصوره الآيات ، « **بينهما حجاب** » بين الجنة والنار منطقة عازلة تفصل بينهما ، وفى أعالى المنطقة على أعرافها أى عواليها يوجد فريق من الناس هم أيضا بين هؤلاء وهؤلاء فى أعمالهم وما ترتب عليها من مصير بالنسبة لهم ٠ وهم أيضا بين هؤلاء وهؤلاء فى مشاعرهم النفسية ، فأعمال أصحاب الجنة تقدمت بهم الى حيث استقروا فى الجنة ونعيمها وأعمال أصحاب النار قعدت بهم حيث ألقوا فى جهنم وعذابها ، وأصحاب الجنة قد امتلأت نفوسهم أمنا وأمانا ، وأصحاب النار قد استحكم يأسهم وتقطعت أسباب آمالهم ٠ أما من على الأعراف فقد قصرت بهم أعمالهم عن الوصول الى الجنة ، وتقدمت بهم بحيث جاوزوا النار ، كما أن مشاعرهم بين الرجاء والخوف ٠ ذلك كله يصوره القرآن فى قوله تعالى « **لم يدخلوها وهم يطمعون** » ونلاحظ أن القرآن لم يعبر عن هؤلاء بأنهم أصحاب الأعراف كما عبر عن أصحاب الجنة وأصحاب النار ، لأنها مقر مؤقت سرعان ما يتحولون عنه عندما يشملهم الله بواسع فضله ويأذن لهم بدخول الجنة ، كما نلمس الجمال فى التعبير عن أعالى الحجاب بالأعراف استعارة من عرف الفرس ٠ انها لمسة جمال تثير خيال العربى ٠

ثم تتوالى اللمسات لتكمل الصورة وتزيد الملامح النفسية لكل فريق وضوحا وجلاء ، فأهل الأعراف من موقعهم ينظرون الى أصحاب الجنة ، ويرون ما هم فيه مما يغبطونهم عليه ، فأنظارهم معلقة بهم ، تتحرق شوقا لنيل هذا الفضل ينادون أصحاب الجنة « **سلام عليكم** » تحية لهم ودعاء ٠

« **واذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين** » ان أبصارهم معلقة بالجنة وأصحابها يتحامون الالتفات الى النار وأصحابها ، فاذا « **صرفت أبصارهم** » أى صرفا دون ارادة منهم الى أهل النار فزعوا واستعاذوا بالله أن يكون مصيرهم مصير هؤلاء ، وقالوا : « **ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين** » ٠ وهذا يوحى بعظم الهول والعذاب الذى يعانيه أصحاب النار ٠

وتتوالى اللمسات ٠٠٠

« **ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم ، قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون** » بعد تلك الاستعاذة التى انطق بها

المشهد المفزع أصحاب الأعراف ، نراهم ينادون رجالا من أهل النار تعرفوا عليهم بسيماهم الدالة على سوء حالهم قائلين : ما أغنى عنكم جمعكم من الأتباع والأشياع ؟ وماذا أفادكم تطاولكم واستكباركم ؟ والاستفهام هنا يحمل من التقريع والتوبيخ ما يستحقه أصحاب النار ·

« **أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة** » أليس هؤلاء هم الذين أكدتم أن رحمة الله لن تجد طريقها اليهم ؟ فانظروا ما هم فيه اليوم لقد قيل لهم :

« **ادخلوا الجنة لا خوف عليكم** » بعد ذلك ، فان لكم النعيم الدائم والسعادة الغامرة التى لا يشوبها حزن ولا يكدرها هم · انه التأنيب الموجع والتبكيت العنيف الذى يضيف الى لهب النار يشوى جلودهم لهبا آخر يفطر قلوبهم ويذيب نفوسهم حسرات على ما فرطوا فى حق أنفسهم · ويلاحظ التنكير فى ـ خوف ـ وهو واقع فى سياق النفى فيفيد العموم · اشارة الى نفى أى خوف عنهم زيادة فى الترغيب ·

« **ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله** » هكذا ينتهى الحال بأصحاب النار الى هذا الانكسار الذليل ، ويتحطم كل ما كان لديهم من الصلف والاستعلاء ، فاذا بهم يستجدون أهل الجنة ضارعين أن يمنوا عليهم بشربة ماء ، « **أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله** » لقد أصبحت شربة الماء منتهى رجائهم · يالله من بلاء ذلك الذى أذل هذه النفوس المتطاولة وأرغم الأنوف الشامخة ··

ولكن أهل الجنة من مكانهم الرفيع ـ كما توحى كلمة « أفيضوا » يردون قائلين « **ان الله حرمهما على الكافرين · الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا** » لا سبيل لكم الى ذلك ، فالله جل جلاله قضى بتحريمهما على الكافرين قضاء مبرما ، مؤكدين كلامهم بـ « ان » ، وباستناد التحريم الى الله الذى لاراد لقضائه ، ولا معقب لحكمه · ثم يعقبون على ذلك بتذكيرهم بجرائمهم التى جرت عليهم كل هذا الشر ، انهم كافرون اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وشغلتهم زخارف الحياة الدنيا وزينتها فنسوا ما ينتظرهم من بعث وحساب ·

وتأتى كلمة الفصل من رب العزة « **فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا** » · انه القصاص العادل ، لقد نسوا لقاء الله فاستحقوا ألا يلتفت الله الى استجدائهم وضراعتهم · وواضح أن « **ننساهم** »

مستعارة لمعنى الاهمال والترك ، أى نفعل بهم ما يفعل بالمنسى الذى لا يلتفت اليه · والاستعارة ابلغ فى أداء المعنى وأدل على تحقيرهم واذلالهم ·

« **وما كانوا بآياتنا يجحدون** » حيثية أخرى لاستحقاقهم ما هم فيه وأى جرم أشنع من أن يعرف الانسان الحق ثم ينكره ؟

وبعد : فهذا تصوير القرآن للمعانى · يعرضها ـ كما قلنا فى أول النص فى مشاهد زاخرة بالحركة والحوار الموحى بما فى نفوس الشخصيات من انفعالات ومشاعر ، كى يصل بهذا الأسلوب المؤثر الى النفس البشرية ، ويزيل عن بصيرتها ما يحجب نور الحقيقة عنها ، ويدفعها دفعا بهذا التشويق والترغيب الذى يجعلها بتصويره للمعانى تكاد تستروح نسماته ، وتذوق حلاوته ، وتتملى جماله ، وتمرح فى نعيمه · انه القرآن كلام الله مبدع النفوس والعليم بما يقودها الى الحق ·

★★★

● **اسلوب الجدل :**

سبق أن أوضحنا أن النفس البشرية متعددة الجوانب من وجدان وعقل وارادة ، وأن التعامل معها لابد أن يتجه الى كل منافذ التأثير فيها لنصل من خلالها الى تغيير ما بها ، ليحل مكانه الايمان الراسخ بالدعوة ومبادئها ·

والقرآن الكريم فى دعوته يلاحظ الطبيعة البشرية ولا يترك بابا يمكن أن ينفذ منه ليحقق هدفه · ومن هنا نراه قد اتجه الى العقل والمنطق ، يفند الشبهة ويسوق الدليل ، ويقطع على المنكرين والمعاندين طريق الاعتذار العقيم ·

وقضية الوحدانية الخالصة المبرأة من كل شوائب الشرك كما دعا اليه الاسلام ، قد واجهت انكارا شديدا من جميع أصحاب الديانات فى المجتمع العربى آنذاك · يستوى فى ذلك المشركون وأهل الكتاب من النصارى واليهود الذين اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا ، وحرفوا الكلم عن مواضعه ، وقد جادل القرآن الكريم كل هؤلاء فلنعرض نماذج من الجدل القرآنى للمعارضين على اختلاف نزعاتهم ·

★★★

● ابطـال عبـادة الأصـنام :

قـال الله تعـالى :

« ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبـل وكنا به عالمين . اذ قال لأبيـه وقومه ما هذه التماثيل التى انتم لها عاكفون . قالوا وجدنا آباءنا لهـا عابدين . قال لقد كنتم انتم وآباؤكم فى ضـلال مبين . قالوا أجئنا بالحق أم انت من اللاعبين . قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وانا على ذلكم من الشاهدين . وتالله لأكيـدن اصنامكم بعد ان تولوا مدبرين . فجعلهم جذاذا الا كبيرا لهم لعـلهم اليه يرجعون . قالوا من فعـل هـذا بالهتنـا يا ابراهيم . قـال بل فعـله كبيرهم هذا فاسألوهم ان كـانوا ينطقون . فرجعوا الى انفسهم فقالوا انكم انتم الظالمون . ثم نكسـوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون . قال افتعبـدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم . اف لكم ولمـا تعبدون من دون الله ، افلا تعقلون . قالوا حرقوه وانصروا الهتكم ان كنتم فاعلين . قلنا يا نار كونى بـردا وسلاما على ابراهيم . وارادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين . ونجيناه ولوطا الى الأرض التى باركنا فيهـا للعالمين . ووهبنا له اسحاق ويعقوب نافلة ، وكلا جعلنا صـالحين » (١) .

هذه آيات كريمة من سورة الأنبيـاء ، وهى من السور المكية التى تركز ـ كما سبق ـ على أهداف الدعوة الاسلامية الأساسية وفى طليعتهـا قضية التوحيد . ولهذه الآيات وضع خاص بالنسبة للمجتمع المكى انذاك ، فقد كانوا يعتزون بأنهم أبناء ابراهيم عليه السلام ـ ويزعمون أنهم عـلى دين أبيهم وأنهم ورثة شريعة وحمـاتهـا . فعنـدما تقص الآيات عليهم ما كان منه تجـاه الأصـنام ، وكيف تصـدى لقومه مجادلا لهم سـاخرا منهم ، بل متحديا لهم ، محطما لمـا يزعمونه آلهة ، أقـول : عندما تقص الآيـات عليهم ذلك فكأنها تقـول لمشركى مكة : ها هو ذا موقف أبيـكم ابراهيم عليه السلام الذى تعتزون بنسبه وتظنون أنكم على دينـه تجـاه الأصنام التى تعبدونها ، وها هى تلك حجته على قومه التى لم يجـدوا لها

---

(١) الأنبياء : ٥١ ـ ٧٢

دفعـا ، فلجأوا الى بطشهم وطغيانهم ، شأن كل ظالم فأى عـذر لكم بعد أن تبين لكم الحق ؟ وكيف تزعمون بعد اليـوم أنكم على دين أبيكم ابراهيم وقد رأيتم ما فعـله بالأصـنام ؟

والآيات تسوق الدليل على وحدانية الله فى أسلوب تصويرى يعرض علينا مشاهد متتابعة تعتمد على حكاية الحوار بين ابراهيم وقومه ، وهو حوار ينتهى بأن الاشراك بالله الغـاء للمنطق واهـدار للعقل وجرى وراء تقليـد أعمى يطمس البصائر ويحجر التفكير ٠

« **ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين** » ٠

« **ولقد آتينا ابراهيم رشده** » هكذا بالتأكيد المستفاد من اللام و « قد » والموحى بأهمية الأمر ٠ والرشد هو الاهتداء لوجوه للصلاح ، واضافة الرشد اليه يعنى أنه رشـد خاص يليق به وبأمثاله من الرسل الكرام صـلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ٠ وفائدة ذلك تعظيم ما أوتيه ابراهيم عليه السلام من الهداية الى الحق ، وأن دعوته الى التوحيد ـ وهى المعنية بالرشد ـ هى أمر له شأن ، وهى عطاء الله لأنبيـائه وهديه لهم ٠ أما قوله تعالى « **من قبل** » فالمراد بـه أن ذلك كان قبـل موسى وهارون عليهما السلام وقـد ذكـرت قصتهما فى الآيات السابقة على قصة ابراهيم ٠ « **وكنا به عالمين** » اننا لم نصطفه لهذا الأمر الجليل الا لعلمنـا أنه أهـل له وأنه جـدير به ٠ فالله أعلم حيث يجعـل رسـالته فهو تعبير يوحى بكل ما يخطر عـلى الذهن من صفات كريمة ترشح لهذا المنصب الجليل ٠

« **اذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون** » ان أباه هو أول من يخاصمه فى القضيـة ، فالحق أعـز على الداعيـة من جميع الأواصر التى تربطه بالناس ، ولو كانت رابطة الأبوة والدم « **ما هـذه التمـاثيل** » لم يقـل ـ الآلهـة ـ بل سماها باسمها : تماثيل ، ليعـلن من أول لحظة أنه لا يقرهم على ما يزعمونه من أنها آلهـة ، ثم انه يعلم أنهـا حجارة أو أخشاب اتخـذوها آلهـة وهم ذلك يتجاهل ويسأل عنها ـ بما ـ التى يطلب بها بيان الحقيقة وشرح الاسم وذلك للقصـد الى تحقيـرها وتصغير شأنها والتعريض والاستخفاف بها ، مع علمه بتعظيمهم واجلالهم لها ٠ فأى ثبات هذا الذى يجعله يواجههم وحده بهذه القوة التى لا تعرف المداراة أو الملاينة ؟ انه خليل الله ، وصدق الله العظيم : « **ان ابراهيم كـان أمـة** » (١) والمراد بالعكوف العبادة وحقيقته اللزوم والاستمرار عـلى

---

(١) النحل : ١٢٠

الشيء لغرض من الأغراض . و « عاكفون » أقوى فى تصوير حالهم لأنها تجعلهم منكبين أبدا عليها ، ويلاحظ أنه لم يذكر مفعولا ـ لعاكفين ـ واستعمله استعمال اللازم كأنه قال : تفعلون العكوف . ثم ذكر أن العكوف لها أى لأجلها ، ليشير الى معنى العبادة المراد من العكوف . وهكذا استخدم العكوف بدل العبادة لما فيه من تأكيد للمعنى ثم أضاف ما يعين المراد منه وهو العبادة .

« **قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين** » لم يجدوا حجة يبررون بها مسلكهم وعبادتهم لهذه الأصنام ، لأن مآل سؤاله عليه السلام هو الاستفسار عن سبب عبادتهم لها . وهكذا بضربة واحدة جعلهم وجها لوجه أمام ما فى موقفهم من تهافت وأنهم ليسوا على شىء ، وأن عقيدتهم لا تستند الى دليل ولا تقوم على برهان ، فهم يعبدونها تقليدا لآبائهم فحسب . وهل يكفى التقليد للآباء دليلا لعقيدة يقف الانسان حياته عليها ، ويربط مصيره بها ، ويخاصم من أجلها ؟ وهنا تكون الفرصة المواتية ليواصل ابراهيم عليه السلام هجومه ، ويجابههم بالحق المؤيد بالبرهان بعد أن أعجزهم عن اقامة أى برهان .

« **قال لقد كنتم انتم وآباؤكم فى ضلال مبين** » انها المجابهة بالحق التى لا تعرف المواربة أو المداراة ، انهم وآباءهم فى ضلال واضح لكل من به مسكة من عقل أو أثارة من فكر . كيف لا ، وهم عاجزون عن ابداء أى دليل على استحقاق هذه التماثيل للعبادة ، فلم يجدوا ما يقولونه سوى أنهم يقلدون آباءهم . وهل عبادة آبائهم لهذه الأصنام تعطيها قيمة ذاتية تؤهلها لأن تكون أربابا تعبد ؟ ان المستحق للعبادة والتأليه لابد أن يكون له فى ذاته من الصفات ما يوجب الوهيته ، والتقليد وحده لا يثبت للأصنام شيئا .

ونلاحظ ما فى النظم من الخصائص المناسبة للمقام ، وأول ذلك : التأكيد بالقسم الذى دخلت اللام على جوابه ، ثم « قد » ، وتأكيد الضمير فى « كنتم » بـ « أنتم » وان كان تأكيدا لا يصلح الكلام بدونه « لأن العطف على ضمير هو فى حكم بعض الفعل ممتنع » (١) ثم تنكير « ضلال » للمبالغة فى أنه ضلال عجيب لا يقادر قدره ، ثم وصف الضلال بأنه مبين واضح لا يخفى على أحد ثم اختيار صيغة ـ مبين ـ اسم فاعل بدل ـ بين ـ كأنه يكشف عن نفسه ويظهر انحرافه لمن ينظره . ثم اختيار حرف

---

(١) انظر الكشاف . ج ٢ ص ٥٧٥

« فى » ليفيد انهم منغمسون فى الضلال وأنه يحيطهم من كل جانب ، انه النظم القرآنى المعجز ·

« **قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين** » ان اجابتهم تكشف عما فى نفوسهم من شك فيما هم عليه ، وعدم ثقتهم فيه ، فهم مزعزعو العقيدة لم يردوا على تأكيده عليه السلام بأنهم فى ضلال بتأكيد يناسبه بأنهم على الهدى ، بل تساءلوا أهو جاد فيما يقول أم هازل ؟ وان كان تعبيرهم بالجملة الاسمية « **أم أنت من اللاعبين** » الدالة على الثبات ايذانا برجحان هذا الاحتمال لديهم وأنه لا يعنى الحق بل هو مداعب لهم ·

« **قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين** » أضرب عليه السلام عن كونه لاعبا · واتجه الى اقامة الدليل على دعواه ، ومحصله أن المستحق للربوبية والعبادة هو خالق السماوات والأرض وما فيهن ، وأن ما لا يكون بهذه الصفة فهو بمعزل عن هذا المقام · وانتم تقرون بأن خالق السماوات والأرض هو الله ثم تعبدون غيره · فأى تناقض هذا الذى انتم عليه ؟ « **وأنا على ذلكم من الشاهدين** » أى العالمين به على سبيل الحقيقة المؤيدة بالدليل · فلست مثلكم لا تملكون حجة على عقيدتكم · ونلاحظ ما فى النظم من اختيار لفظ الرب وما يوحى به من تفضل ورعاية تستوجب العبادة والطاعة ، ثم اثبات أنه خالق السماوات والأرض وما فيها للاشارة الى أنهم وما يعبدون جزء من خلقه ، فكيف يعبد المخلوق ويترك الخالق · تقريعا لهم واظهارا لتضليلهم والزاما لهم بالحجة · كما أن فى التعبير بالشهادة ما يناسب مقام تثبيت دعواه لديهم فهو يعلن ما يثق فيه ثقة من شاهد الشىء وتحقق منه وشهد عليه لاثبات الدعوى ، وليس مثلهم عاريا عن البينة والدليل ·

« **وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين** » تعبير عما ينوى فعله بهذه الأصنام ، ولعلهم لم يحملوا تهديده هذا محمل الجد . فلم يردوا عليه أو يحتاطوا فى منعه · أو لعله قال ذلك سرا ، أو لم يسمعه الا شخص واحد ، كما تفيد بعض الروايات ·

أقسم عليه السلام ليكيدن أصنامهم واستعمل التاء فى القسم · واختيار التاء يفيد معنى زائدا على ما يعطيه القسم بالباء ، ذلك هو

التعجب ، كأنه تعجب من تسهيل الكيد على يديه وتأتيه ، لأن ذلك الأمر كان ميئوسا منه لصعوبته وتعذره(١) واستعمل الكيد فى كسر الأصنام ، لأن فيه ايذانا بصعوبته وتوقفه على انتهاز الفرصة واستعمال الحيلة والتدبير فى ذلك ، فقد كانوا ملازمين للأوثان ومن العسير توفر فرصة لتنفيذ ما اعتزمه ، كما أن التعبير بالكيد دون الكسر قد ترك ما اعتزمه سرا غير محدد ، حتى لا يحتاطوا ولا يمكنوه من تنفيذ ما اعتزمه ٠

« فجعلهم جذاذا الا كبيرا لهم لعلهم اليه يرجعون » هنا فاصل فى سياق الأحداث يفهم من المقام ، لأنه لم يحطمها فى حضورهم ، بل انهم تركوه وغادروا مكان الأصنام ، وبقى وحده فحطمها ٠ وهذا ايجاز بحذف مالا يتطلبه المعنى ٠ وهو من البلاغة بمكان ٠

وتركه عليه السلام للصنم الكبير هو جزء من تدبيره المقصود ، فهو يعلم أنه لن يذهب بفعلته ، بل انهم لابد عائدون ، ولابد أن يكون له موقف معهم عندها ، فترك الكبير على صورته تلك ليكون حاله نفسه دليلا على جهلهم وسخف تفكيرهم ، فان الشأن فيمن يعبد ويؤله أن يرجع اليه فى حل كل مشكل ، فاذا رجعوا تبين لهم انه عاجز لا ينفع ولا يضر وأنهم فى عبادته على جهل عظيم ٠ والقرآن الكريم بعرضه للأصنام مكسرة عاجزة على هذه الصورة المهينة انما يلمس وجدان مشركى العرب الذين يعظمون الأصنام ، ويهزهم هزا عنيفا ليثوبوا الى رشدهم ، ويعملوا عقولهم ، ويتخلصوا من ربقة التقليد التى جعلت قوم ابراهيم سخرية الساخرين ، وفكاهة المتفكهين ٠

« قالوا من فعل هذا بآلهتنا انه لمن الظالمين » وهنا أيضا أحداث مطوية سكت عنها القرآن لعدم تأثيرها فى المعنى ، ولفهمها من السياق ، وليترك للخيال فرصة كى يعمل ويملأ الفجوات فى سياق الأحداث ٠ أى أن ابراهيم بعد أن حطم الأصنام انصرف من المكان وعاد القوم فأبصروا ما حل بآلهتهم فقالوا ــ وقد هالهم الخطب منكرين لما حدث ــ « من فعل هذا بآلهتنا » ؟ على سبيل الاستفهام الانكارى اشارة الى شناعة هذا العمل وتوعدا لمن فعله ٠ ويلاحظ أنهم قالوا « بآلهتنا » ، ولم يشيروا اليها

---

(١) انظر الكشاف ٠ ج ٢ ص ٥٧٦

بهؤلاء مثلا ، وهى أمام أبصارهم مبالغة فى التشنيع وتعظيما للجرم لأنه وقع على آلهة ، وهى حقيقة بالاعظام والتبجيل فالجراة عليها أشنع ·

« **انه لمن الظالمين** » استئناف مؤكد لمعنى الانكار السابق وهـذا سر الفصل فيه · ويلاحظ ما فى صـياغة الجمـلة من التأكيـدات المعبرة عن اعتقادهم الراسخ فى ظلم من تجرأ على آلهتهم بهـذا العمل الشنيع ·

عند ذلك تذكر الذين سـمعوا ابراهيم عليه السـلام يتوعد آلهتهم فقالوا اجابة على هـذا التساؤل :

« **قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم** » · لعل ابراهيم عليه السلام كان شابا صغير السن فيكون قولهم « فتى » اطلاقا حقيقيا · وان كانت بعض الروايات توحى بأنه كان قد بعث ، وعلى ذلك فيكون قولهم « **فتى** » استصـغارا منهم لشأنه وتحقيرا له ، كما يبدو هـذا أيضـا فى قولهم « **يقال له ابراهيم** » عامدين الى بيان أنه شخص مجهول لا يؤبه به ·

« **قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشـهدون** » · أرادوا أن يشاهد الناس محاكمته وما سينزل به من عقاب تشهيرا به وزجرا لغيره ، ولكنهم فى الواقع كانوا يحققون بعملهم هـذا أعز ما يتمناه ابراهيم وهو أن يجتمع الناس كلهم ليبين لهم بالبرهان القـاطع والتجـربة العمـلية المشاهدة ما هم عليه من جهل فى عبادتهم لهـذه الأصنام التى لا تدفع عن نفسها ضرا · فكيف يطلب منها أن تدفعه عنهم ؟

ويلاحظ أن التعبير القرآنى يصور مدى حرصهم على اجتماع الناس ورؤيتهم لابراهيم ليشفوا صدورهم منه ، فيقول « **على أعين الناس** » فهى كناية والمراد بها : فأتوا به واجعلوه بحيث يشاهده الناس ويرونه · ولكن معنى الاسـتعلاء المفهوم من « على » يصـور المعنى أى « يثبت اتيانه فى الأعين ويتمكن فيها ثبات الراكب على المركوب وتمكنه »(١) وهو تصوير يوحى بما فى نفوسهم من حنق وغيظ يبدو فيما يقولون · ثم نفذوا ما قالوا

---

(١) الكشاف ج ٢ ص ٥٧٧

« **فاتوا به** » وجمعوا الناس وسألوه أمامهم ، والقرآن كعادته سكت عن ذلك لفهمه من السياق ، وذكره لا يضيف جديدا يتطلبه المقام ·

« **قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم** » ·

« **أأنت فعلت هذا** » بتقديم « **أنت** » على الفعل لأن المقرر به والمطلوب هو بيان الفاعل أما الفعل فهو ماثل أمامهم متحقق لا يسئل عنه · فالهمزة للتقرير بالفاعل مع تضمنها التوبيخ ، ولذلك قدم الاسم · ثم أية حماقة تلك أن يطلقوا على هذه التماثيل التى صارت جذاذا انها ـ الهتهم ـ ولكنه التحجر الفكرى الذى أصابهم به تقليدهم الأعمى ·

« **قال بل فعله كبيرهم هـذا فاسألوهم ان كانوا ينطقون** » انها ذروة المواجهة ، واللحظة الحاسمة التى يسدد فيها ابراهيم ضربته القاتلة اليهم فالأصنام جذاذ ، والفأس معلقة برقبة كبيرهم شاهدا على عجزه ، والساحة تموج بملأ من الناس ما كان ابراهيم أن يجمعه ليبلغه الدعوة مهما بذل والنفوس متطلعة ، والعيون شاخصة والآذان مرهفة · فليتقدم ابراهيم اذن ليجابههم بما يبهتهم ويزلزل كيانهم ويعيد اليهم صوابهم ، وها هو ذا يقول « **بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ان كانوا ينطقون** » انه هجوم مباشر على الهدف · فليست القضية قضية من الفاعل ؟ ولكنها عند ابراهيم الدرس الذى يمليه الموقف ويجب أن يسمعه الجميع ·

جاء فى الكشاف « هذا من معاريض الكلام ، ولطائف هذا النوع لا يتغلغل فيها الا أذهان الراضة(١) من علماء المعانى ، والقول فيه أن قول ابراهيم صلوات الله عليه لم يكن القصد منه أن ينسب الفعل الصادر منه الى الصنم وانما قصده تقريره لنفسه واثباته لها على أسلوب تعريضى يبلغ فيه غرضه من الزامهم الحجة وتبكيتهم · وهذا كما لو قال لك صاحبك وقد كتبت كتابا بخط رشيق ، وأنت شهير بحسن الخط : أأنت كتبت هذا ؟ وصاحبك أمى لا يحسن الخط ولا يقدر الا على خرمشة فاسدة فقلت له : بل كتبته أنت · كان قصدك بهذا الجواب تقريره لك ومع الاستهزاء به ، لا نفيه عنك واثباته للأمى أو المخرمش ، لأن اثباته والأمر دائر بينكما للعاجز منكما استهزاء به واثبات للقادر » ثم يذكر توجيها آخر فيقول : « ولقائل أن يقول : غاظته تلك الأصنام حين أبصرها

---

(١) يقال : راض المهر ذلله وطوعه · فهو رائض والجمع راضة ورواض · والمراد المتمرسون بالأساليب المتمكنون من فنونها · انظر المنجد ص ٢٨٧

مصطفة مرتبة ، وكان غيظ كبيرها أكبر وأشد لما رأى من زيادة تعظيمهم له ، فأسند الفعل اليه لأنه هو الذى تسبب فى استهانته بها ، وحطمه لها · والفعل كما يسند الى مباشره يسند الى الحامل عليه » (١) يعنى المجاز العقلى وذكر آراء أخرى كما فعل غيره ، وكلها تدور حول تلمس وجوه تنفى الكذب عن سيدنا ابراهيم عليه السلام باعتباره معصوما ·

والذى نرتضيه هو ما ذهب اليه صاحب الكشاف من أنه أسلوب تعريضى على النحو الذى بينه ، وأن ما افترضه العلماء من دلالة الكلام على الكذب انما هو افتراض وهمى ، وأن كل ما دار حوله من آراء ومناقشات لا تقوم على أساس · فاللغة العربية ـ وثروتها فى البلاغة القرآن الكريم ـ زاخرة بالمعانى المجازية بما لا يدع مجالا لتكلف مثل هذه التخريجات المفتعلة ·

فابراهيم عليه السلام استطاع بأسلوبه هذا أن يجبه مجادليه ويحملهم حملا على اعادة النظر فى القضية ومراجعة عقولهم نتيجة للتناقض الذى وجدوا أنفسهم فيه ، وهم يغضبون من أجل أحجار محطمة لم تستطع دفعا لمن حطمها بل ولا أن تدل عليه · ولقد أخبر القرآن عن ذلك حيث يقول :

« فرجعوا الى انفسهم فقالوا انكم أنتم الظالمون » رجعوا الى أنفسهم انه التصوير القرآنى ، كأن نفوسهم كانت هناك بعيدة عنهم ، لا يستخدمون ما فيها من ادراك ومواهب ، بل تركوا نفوسهم ومداركها وساروا خلف ما ورثوه من خرافات وأباطيل انحدرت بهم الى هذا الدرك من المهانة ، حيث يعبدون حجارة يستطيع أحدهم أن يحطمها فلا تبدى حراكا · وعندما جبههم ابراهيم بهذه الحقيقة التى كانت غائبة عنهم ، كانت كالصدمة أيقظتهم فرجعوا الى أنفسهم وعقولهم يحتكمون اليها · وعندما رأوا الحقيقة ماثلة للعيان لا تحتاج الى بحث أو تنقيب ، فحكموا على أنفسهم « انكم انتم الظالمون » بصيغة الواثق المتأكد · أنتم الظالمون وحدكم لا ابراهيم الذى نسبتم اليه زورا أنه ظالم · والتوكيد فى الجملة واضح لا يحتاج الى بيان ·

وكان المأمول أن تنتهى المعركة بهذا النصر الذى حققه ابراهيم عليه السلام ، وأن يحمدوا هذا الفضل ، اذ أرشدهم الى الحق ، وكشف عن أبصارهم الغشاوة · ولكن غلبت عليهم شقوتهم ·

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ٧٧٠

« ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون » لقد كان رجوعهم الى انفسهم ومضة لم تلبث أن تلاشت وسط الظلمات · فبعد أن استقاموا برجوعهم الى الحق ، انتكسوا بعودتهم الى الباطل · وواضح ما فى التعبير من استعارة تبعية بنيت على تشبيه عودتهم الى الباطل بعد أن عرفوا الحق بالنكس وهو صيرورة اسفل الشيء اعلاه · وكم توحى صورتهم منكسين على رؤوسهم بالنفور والاشمئزاز والسخرية · وتلك وظيفة التصوير وتأثيره فى المشاعر ولقدنكسوا فعلا فى كل شيء ، وهل هناك أشد انتكاسا من أن تنقلب حجتهم حجة عليهم · لقد طاش صوابهم من فرط ما بهتهم به ابراهيم عليه السلام فقالوا : « لقد علمت ما هؤلاء ينطقون » وهى نفس حجة ابراهيم عليهم وهل بقى شيء لدى ابراهيم عليه السلام يقوله لهم ، وينكرهم به بعد أن وصلوا الى هذا الحد من المكابرة والعناد والتحجر الذى يملأ القلوب غيظا وغضبا ؟

« قال أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم ولا يضركم ، أف لكم ولما تعبدون من دون الله ، أفلا تعقلون » ·

انها نفثة المغيظ المحنق « أف لكم ولما تعبدون من دون الله » أبعد أن علمتم حقيقتهم وأنهم لا ينفعون ولا يضرون تصرون على عبادتهم وتتركون مستحق العبادة ربكم رب السماوات والأرض ، أفلا تعقلون فتدركوا قبح صنعكم ؟

« قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين » بعد أن ألقمهم ابراهيم عليه السلام حجرا ، وأفحمهم بحججه المسكتة ، لم يبق أمامهم الا أن يلجأوا الى العدوان والبطش ، شأن كل ظالم غاشم ، وتلك ذروة الهزيمة فى مقارعة الحجة بالحجة ، تركتهم ونفوسهم تتلظى بالمرارة والحقد الذى تجلى فى اختيارهم ابشع الوان العقاب وهو النار علها تشفى صدورهم وتنفس عنها بعض ما تجد · « قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم » وأى آلهة هذه التى ينصرها اتباعها وهى مطروحة هناك جذاذا تطؤها الأقدام ؟ ولكنه الانتكاس على الرؤوس الذى يقلب كل المقاييس · واختيار المضعف « حرقوه » للمبالغة فى الاحراق ينبيء عما فى نفوسهم من غيظ وحنق ·

ويأبى الله تعالى أن يبلغ هؤلاء الظلمة ما يريدون ، فيرد كيدهم فى نحورهم ، وينقلب تدبيرهم حجة جديدة عليهم ، تسلبهم كل شيء وتتركهم كآلهتهم جامدين عاجزين ·

« **قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على ابراهيم · وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين** » هكذا يصور القرآن نفاذ قدرة الله فى مخلوقاته ، واستجابتها لأمره ـ كما مر فى قوله تعالى : « **ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين** »(١) فهو تعبير عن نفاذ أمر الله وتحقق ما يريد · ويلاحظ ما فى التعبير الكريم من مبالغة حيث جعل النار المسخرة لقدرته مأمورة مطيعة · واقامة « كونى ذات برد » مقام « ابردى » وحذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه كأنها هى البرد نفسه كما يلاحظ أيضا أنه لم يأمرها بأن تكون بردا فقط . والا لهلك منه ابراهيم ، وانما عطف عليه « **سلاما** » أى بردا غير ضار · وفى قوله تعالى « **سلاما** » ما فى قوله « **بردا** » من مبالغة كأنها فى ذاتها برد وسلام وتنكير « **كيدا** » للتعظيم ، وهو يوحى بما فى نفوسهم من غيظ وحنق ·

وهكذا انقلب عليهم تدبيرهم « **وأرادوا به كيدا** » أى اضرارا **فجعلناهم** أخسر من كل خاسر ـ كما تدل على ذلك صيغة التفضيل فى « **الأخسرين** » وكذلك بتعريفها بلام الجنس ـ حيث عاد سعيهم فى القضاء عليه والاجهاز على دعوته برهانا قاطعا على أنه عليه السلام على الحق ، مؤيد من الاله الحق الذى لا يعجزه شىء ، يقول للشىء كن فيكون ·

وتمضى الآيات الآيات مبينة ما تفضل الله به على هذا النبى الذى وقف وحيدا أمام أمة كاملة لا يلين ولا يتزعزع واثقا من دعوته معتمدا على ربه ·

« **ونجيناه ولوطا الى الأرض التى باركنا فيها للعالمين** » والمراد بها الشام ، وهى اشارة ربانية الى ما اختصت به هذه الأرض من فضل الله . فهى مصدر البركة تفيض منها على العالمين ، فهى مهبط الرسالات ، منها ينبعث نور السماء وعليها تنزل شرائع الله التى هى مناط الخير فى الدنيا والآخرة ·

« **ووهبنا له اسحاق ويعقوب نافلة ، وكلا جعلنا صالحين · وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ، وأوحينا اليهم فعل الخيرات واقام الصلاة وايتاء الزكاة ، وكانوا لنا عابدين** » ·

لقد استجاب الله لابراهيم فوهبه اسحاق ثم زاده يعقوب نافلة وزيادة على ما سأل تكرما منه وفضلا ، ووفقهم جميعا ابراهيم ولوطا واسحاق ويعقوب الى الصلاح فى الدين والدنيا · وجعلهم أئمة ، أى يقتدى

---

(١) فصلت : ١١

بسلوكهم الملتزم بأمر الله . وهـذا يؤكد ما يجب أن يكون عليه الداعية من التزام بما يدعو اليه وأنه يكون قدوة بسلوكه وسيرته . وأوحى الله اليهم فعل الخيرات ، أى أن يفعلوا كل ما هو خير : ثم يخص بعض هـذه الخيرات من باب ذكر الخاص بعد العام تنبيها على فضلها ورفعة شأنها « **واقام الصلاة وايتاء الزكاة** » ثم تختتم الآيات بتأكيد معنى التوحيد الخـالص « **وكانوا لنا عابدين** » بتقـديم الجار والمجرور ليفيد قصر العبـادة عليه سبحانه لا تتعداه لغيره كائنا من كان بشرا أو صنما أو هوى أو غير ذلك مما يعبده المشركون . وهكذا يؤكد عجـز الآيات ما دعا اليه صـدرها . ويبقى النص الكريم حجة قائمة ما بقيت السماوات والأرض ، تهدى كل ضال ، وتوقظ كل غافل ، وتفحم كل معـاند .

واذا كان لنا ما نضيفه الى ما سبق فهو الاشـارة الى ما فى النص الكريم من عوامل التأثير ، حيث اختار أسلوب القصة مستغلا ما تمتاز به من التشويق والاستحواذ على المشاعر ، ثم أسلوب الحوار الذى يقارع الحجة بالحجة ويترك الفرصة للمخـاطبين أن يوازنوا ويعمـلوا عقولهم ليصلوا الى الحق بأنفسهم الى جانب قدرته على تصوير المشاهد تصـويرا حيا نابضا بالحركة ، ثم ما فى الآيات من فواصل مطمئنة فى مواضعها ، تدعم المعـانى ، وتشـد الانتبـاه ، وتوقظ الحس ، كى يكون المخاطب مع النص بفكره ومشاعره وكل حاسة فيه . فأين ذلك الأسـلوب الحـكيم من سخافات أرباب المنطق والكلام الذين لا يصدر عنهم الا أحجيات لا يدركها الا الخاصة ، تبعث الملل ، ولا تحسم الحق .

***

● **مجادلة أهل الكتاب :**

قال تعالى : « **لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسـيح ابن مريم ، وقال المسيح يا بنى اسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم ، انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار ، وما للظالمين من أنصار . لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة وما من اله الا اله واحد ، وان لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب اليم . أفلا يتوبون الى الله ويستغفرونه ، والله غفور رحيم . ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة ، كانا يأكلان الطعام ، انظـر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون .. قل أتعبدون من دون الله مالا يملك لكم ضرا ولا نفعا ، والله هو السميع العليم . قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضـلوا عن سـواء السبيل** »(١) .

(١) المائدة : ٧٢ ـ ٧٧ .

التوحيد الخالص هو دين الله ودعوته للناس التى جاء بها كل رسول ولكن هـذا التوحيد الخالص أدخلت عليه التحريفات نتيجة لدخول كثير من الوثنيين فى النصرانيـة ، فقد أولوا فيها حتى انتهى بهم الأمر الى أن اعتقدوا بالتثليث · ويعنى أن أصـول العـالم ثلاثة هى : الأب ، والابن وروح القدس · ثم اختلفوا فى بيان هـذه الأصول الثلاثة الى فرق عـدة أشهرها تلك التى تشير اليها الآيات الكريمة والتى تدعى أن الله هو المسيح ابن مريم وهم اليعقوبيون ، فقـد قالوا : أن اقنوم العلم ـ يعنون الكلمـة قد اتحد بعيسى ، فالمسيح طبيعة واحدة امتزج فيها عنصر اللاهوت بعنصر الناسوت ، فالعنصر الالهى والعنصر الانسانى قد اتحدا اتحادا كليا فى عيسى ، فأنت ترى الاله والانسـان فى وقت واحـد · والعجيب أن تاريخ المسيحية يسجل أن هـذه الخلافات كانت مستعرة بين الفرق مما كان يستدعى عقد مؤتمرات لاهوتية لتفصـل فيها · وكان العقيـدة موضـوع سياسى يناقش ثم يؤخذ فيه برأى الأغلبيـة أو بما تمليه ارادة الحـاكم المتسلط · ومن أهم المؤتمرات ، التى تسجل هـذا التطـور فى العقيـدة المسيحية ، مجمع نيقيا (١) عام ٣٢٥ ميلادية الذى انتهى بالقول بالوهيـة المسيح ، ومجمع القسطنطينية الأول عام ٣٨١ ميلادية الذى قرر الوهية روح القدس · وبذلك أصبحت العقيدة المسيحية تقول بثلاثة آلهة ، فالأب اله ، والابن اله ، وروح القدس اله وهـذا ما حكم الاسلام بكفر القائلين به (٢) ·

وردا على كل هـذا الخـليط العجيب من التحريفـات تأتى الآيات الكـريمة لتجلـو وجه الحق ، وتجادل هـؤلاء وتدحض مزاعمهم بأدلتهـا المفحمة ، وبلاغتها المعجـزة ··

« لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم » حكم قاطع على أصحاب هـذا القول بالكفر ، مؤكدا بالقسم الذى دخلت اللام على جوابه وبـ « قد » · والتعبير باسم الموصول كى ينص فى صلته على موجب هـذا

---

(١) نيقيا : مدينة فى الأناضول عقد فيها مجمعان مسكونيان الأول سنة ٣٢٥ م والثانى سنة ٧٨٧ م واسمها الآن : أزنيق ·
انظر المنجد ص ٥٤٥ · قسم أعلام الشرق والغرب ·

(٢) انظر فى هذا محاضرات فى النصرانية لفضيلة الشيخ محمـد أبو زهرة من ص ١٢٢ ـ ١٤٠ والفلسفة الاسلامية وصلاتها بالفلسفة اليونانية للدكتـور محمـد السيد نعيم والدكتور عوض الله جاد حجازى ص ١٢٠ ـ ١٢٣ وفى ظلال القرآن لسيد قطب ص ٨٦٢ وما بعدها ج ١ ·

الحكم عليهم · والمقام يقتضى هذا التاكيد لحسم الأمر ، ورفع كل التباس ، واغلاق الباب أمام كل تاويل ·

« وقال المسيح يا بنى اسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم » الجملة حال من الضمير فى ـ قالوا ـ تسجل عليهم انهم فى قولهم هذا مخالفون لما دعاهم اليه المسيح عليه السلام ، وانه تحريف منهم ، وان المسيحية كغيرها من الأديان قائمةعلى التوحيد الخالص ·

ويلاحظ ما فى التعبير القرآنى من خصائص : فقد ناداهم ببنى اسرائيل تذكيرا لهم بصلتهم بنبى الله يعقوب عليه السلام التى تستوجب الانقياد والطاعة أداء لحق هذه الصلة التى يعتزون بها · ثم يصف الله تعالى بأنه « ربى وربكم » وأنتم مربوبون له والربوبية تقتضى العبادة والخضوع ·

« انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار » لم يكتف المسيح عليه السلام ببيان العقيدة الصحيحة ، بل أتبع البيان بالترهيب وبيان مصير من لا يستجيب لدعوة التوحيد · ويأتى النظم الكريم ليسوق القضية فى صورة قانون عام لا استثناء فيه ، « من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة » · ثم يضيف الى الحرمان من النعيم الابتلاء بالعذاب « ومأواه النار » · ولنتأمل التعبير بالظاهر بدل الضمير فى قوله تعالى « من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة » لتربية المهابة وتهويل الأمر حثا لهم على الامتثال والطاعة · ونلاحظ ماتضمنته الجملة من تاكيدات ظاهرة ، وكذلك توالى العقوبات وتعددها كأنها ضربات متلاحقة لا تتركهم حتى تقضى على عنادهم ·

« وما للظالمين من أنصار » هذا تذييل مقرر لما قبله ، وقطع لكل أمل كاذب فى الافلات من عذاب الله وانتقامه · فليس هناك من يدفعه عنهم أو ينصرهم بانقاذهم منه لا بطريق المغالبة ولا بالشفاعة يدل على ذلك وقوع النكرة فى سياق النفى « أنصار » وزيادة ـ من ـ للتاكيد · ويلاحظ ما فى النظم القرآنى من التعبير بلفظ ـ الظالمين ـ بدلا من الضمير العائد اليهم ـ أى ـ وما لكم ـ ليسجل عليهم بانهم ظلموا بالاشراك ، وعدلوا عن طريق الحق ، فاللام فى « الظالمين » للعهد · وهذا التذييل اما من تمام كلام عيسى عليه السلام أو من جهته تعالى تأكيدا لقول عيسى لهم وتقريرا له ·

واذا كان دافع النصارى الى تأليه عيسى هو تعظيمهم له ؛ فان حكاية الله تعالى دعوة عيسى لهم الى توحيد الله وترهيبهم من الاشراك به بهذا

الأسلوب الجازم ـ مع أنهم يبغون تعظيمه ـ اشارة الى أن الأنبياء عليهم السلام ليس لحظ النفس عندهم مكان ، فالحق وحده هو غايتهم · وتلك لمحة على الداعية أن يملأ بها وجدانه ، ويستضيء بها فى طريقه ·

« **لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة** » حكم بالكفر على طائفة أخرى منهم تقول هذا القول · ومعنى أن الله ثالث ثلاثة ، أنه واحد من ثلاثة كل منهم هو اله · فقد سبق أن نقلنا انهم اعتبروا الألوهية مشتركة بين الله ـ الأب ـ وعيسى ـ الابن ـ وروح القدس · فكل واحد من هؤلاء هو فى رأيهم اله · فحكم القرآن عليهم بالكفر لهذا حكما مؤكدا كالسابق بالقسم ، لأنهم بدلوا شريعة الله وهى التوحيد الخاص ·

« **وما من اله الا اله واحد** » المعنى انه ليس فى الوجود اله قط الا اله موصوف بالوحدانية لا ثانى له ، وهو الله وحده لا شريك له · و « من » تفيد الاستغراق · وأسلوب القصر بطريق النفى والاستثناء لقصر صفة الألوهية على الله الواحد ، ونفيها عما عداه مطلقا · تأكيدا للمعنى يستوجبه مقام الرد على من يدعون التعدد ·

« **وان لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم** » هذا تهديد منه سبحانه ، وتحذير من عاقبة كفرهم بسبب ما يقولون ويعتقدون من أن الله ثالث ثلاثة · ويلاحظ ما فى التعبير من تأكيد بالقسم الذى تنبىء عند اللام وبنون التوكيد الثقيلة ثم وصف العذاب بالأليم كأنه نوع خاص أعد لهم يتناسب مع عظيم جرمهم · و «من» للبيان أو للتبعيض · كما يلاحظ التعبير باسم الموصول بدلا من الضمير ليسجل عليهم فى الصلة الكفر مرة أخرى فالمعنى ـ ليمسنهم ـ ثم التعبير بالفعل « كفروا » المنبىء بالحدوث تنبيه على أن الاستمرار على الكفر بعد هذا البيان الموجب للاقلاع عنه هو كفر جديد وغلو زائد على ما كانوا عليه من أصل الكفر · وذلك مبالغة فى تحذيرهم ·

« **أفلا يتوبون الى الله ويستغفرونه ، والله غفور رحيم** » · وهذه الآية تفتح أمامهم الأمل بالتوبة والرجوع عن قولهم وتذكرهم بأن الله واسع المغفرة والرحمة ، يقبل توبتهم اذا رجعوا عما هم عليه وهذا من واسع فضله تعالى ورحمته لخلقه · والاستفهام فى الآية مستعمل فى الانكار لكفرهم ، وفيه تعجب من اصرارهم وعنادهم وحث على التوبة · والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام · أى « الا ينتهون عن تلك العقائد

الفاسدة فلا يتوبون الى الله ويستغفرونه بالتوحيد وتنزيهه عما نسبوه اليه ، فمدار الانكار والتعجب هو عدم الانتهاء وعدم التوبة ·

ثم تنتقل الآيات الكريمة الى بيان منزلة المسيح وأمه عليهما السلام وتسوق الدليل عليه :

« **ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة . كانا يأكلان الطعام** » انه يواجههم بالمنطق الواقعى المقنع علهم يكفون عن كفرهم · فيثبت أولا أشرف ما امتاز به عيسى عليه السلام وأمه · فعيسى عليه السلام ما هو الا رسول ، أى مقصور على الرسالة لا يتخطاها الى غيرها مما تزعمون من الألوهية · « **قد خلت من قبله الرسل** » صفة لرسول تنبىء عن اتصافه بما ينافى الألوهية ، فمادام مقصورا على الرسالة فهو كغيره من الأنبياء الذين خلوا ومضوا ، فقد مضى هو أيضا ومضيه يقتضى استحالة ألوهيته ، واذا كان الله تعالى قد خصه ببعض الآيات فقد خص غيره بمثلها أو بأعجب منها ، فاذا كان قد خلق من غير أب فقد خلق الله آدم من غير أب ولا أم وهو أعجب « **ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم ، خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون** » (١) فآدم على هذا أحق منه فى ادعاء الألوهية · واذا كان الله قد جعل معجزته احياء الموتى ، فقد أحيا الله العصا فى يد موسى وجعلها حية تسعى ، وهو أعجب من اعادة الحياة لميت · فما هو الا رسول كاخوانه من الرسل السابقين · « **وأمه صديقة** » وما أمه عليها السلام الا صديقة كغيرها من النساء اللآتى يؤمن ويبالغن فى التصديق ويلازمنه فليست على صفة تجعلها مستحقة للالوهية · هكذا بين القرآن الكريم منزلة عيسى وأمه وأثبت لهما أشرف ما لهما من نعوت ، وهى لا تؤهلهم للالوهية · ثم بين القرآن الوصف المشترك بينهما وبين جميع أفراد البشر بل أفراد الحيوان فيقول : « **كانا يأكلان الطعام** » وأكل الطعام حقيقة واقعة فى حياة المسيح وأمه عليهما السلام لا يمكن انكارها ، وهى من خصائص الأحياء الحادثين ، ودليل على بشرية المسيح وأمه ، فلا يكون الها من يحتاج الى الطعام ليعيش ، فالله حى بذاته لا يحتاج الى شىء يحفظ عليه حياته · ثم لننظر الى الأدب الرفيع فى التعبير القرآنى ، ان من يحتاج الى الطعام يحتاج قطعا الى الهضم والاخراج وغيره من الخصائص البشرية وقد كنى القرآن عن كل هذه المعانى بقوله الكريم « **كانا يأكلان الطعام** » ·

---

(١) آل عمران : ٥٩ ·

وبهـذا الدليل الملموس أجهز القرآن على كل ما يدعونه وأبطله · وقد حاول المسيحيون الخروج من هـذا المـأزق دون جدوى ، فمرة يقولون ان للمسيح طبيعتين ، ومرة يقولون ان له طبيعة واحدة · وكل فرقة تلعن الأخرى وتكفرها ، ويبقى الدليل القرآنى فى وضوحه واشراقه حجة دامغة ونورا هاديا ·

« **انظـر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر انى يؤفكون** » انه تعجب مـن حال هؤلاء الذين لا يكفون عن ادعائهم ألوهية المسـيح · انظر كيف سـقنا لهم الدليل والآيات الواضحة وضوحا ينادى ببطلان ما يدعون ثم انظر كيف ينصرفون عن التأمل فيها · فأى عجب يستوجبه حال هؤلاء ؟ وتكرير الأمر بالنظر للمبالغة فى التعجب · و « ثم » هنا مستعملة فى التفاوت بين العجبين وما بينهما من البعد · « يعنى أنه بين لهم الآيات بيانا عجيبا وأن اعراضهم عنها أعجب منه »(١) ويستمر القرآن فى جدالهم :

« **قل أتعبدون من دون الله مالا يملك لكم ضرا ولا نفعـا ، والله هو السميع العليم** » · أى حمق وغباء ذلك الذى يجعلكم تعبدون مالا يملك لكم شيئا من ضر أو نفع ؟ والاستفهام هنا مستعمل فى الانكار والتوبيخ والمراد ـ بما ـ الموصولة عيسى عليه السلام · وايثارها على « من » الخـاصة بالعقلاء مقصود به بيان ادراجه عليه السلام فى سلك الأشياء التى لا قدرة لها على شىء أصلا مبالغة فى نفى الألوهية عنه وتقديم الضر على النفع لأن التحرز عن الضر أهم من تحرى النفع · ولأن أدنى درجات التأثير دفـع الشر ثم جلب الخير(٢) · وقوله تعالى « **والله هو السميع العليم** » تأكيد للانكار والتوبيخ ومقرر للالزام والتبكيت · والمعنى : أتشركون بالله تعالى مالا يقدر على شىء والحـال أن الله هو المختص بالاحـاطة التامة بجميع المسموعات والمعلومات ؟ ومن ثم يضر وينفع · ويلاحظ التنكير فى « **ضرا** » و « **نفعا** » ليشمل أى ضر أو نفع ولو كان يسـيرا تافها ، وذلك زيادة فى نفى القـدرة عنهم ·

« **قل يا أهل الكتاب لا تغـلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل** » ·

---

(١) انظر الكشاف جـ ١ ص ٦٣٥ ·
(٢) انظر تفسير أبى السعود جـ ٢ ص ٥١ ·

« **يا أهل الكتاب** » تلوين للخطاب جذبا للانتباه وتذكيرا لهم بأن كتابهم الانجيل الذى يزعمون أنهم يؤمنون به ينهاهم عما ينهاهم عنه القرآن من الغلو فى تعظيم عيسى عليه السلام ورفعه الى مرتبة الالوهية واستحقاق العبادة · والغلو مجاوزة الحد ، فهم لا ينهون عن تعظيم عيسى واحترامه كنبى بل ينهون عن الغلو فى ذلك · ولعل فيه اشارة أخرى الى اليهود ـ وهم أهل كتاب أيضا ـ اذ ارتكبوا نوعا آخر من الغلو وذلك بوضعهم له عليه السلام عن رتبته العلية بقولهم على مريم بهتانا واثما مبينا · فالغلو فى التعظيم والغلو فى الوضع كلاهما ينهى عنه القرآن ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل · ثم ان تقييد الغلو فى الدين المنهى عنه بأنه الغلو بغير الحق اشارة الى أن الغلو بالحق ، وهو البحث عن حقائقه والاجتهاد فى تحصيل حججه ، غير منهى عنه · أما الغلو بالباطل بتجاوز الحق واتباع الشبه فهو المنهى عنه ·

« **ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل** » ان ما تزعمونه انما هو تحريف وضعه من سبقوكم ، متبعين فيه أهواءهم ضالين عن الحق فلا تتبعوهم · « **وأضلوا كثيرا** » ممن استجابوا لهم واتبعوا باطلهم وشايعوهم على التثليث وتأليه عيسى عليه السلام · « **وضلوا عن سواء السبيل** » وذلك بتكذيبهم للنبى ﷺ لما بعث وعدم استجابتهم له · ولنتأمل ما فى التعبير الكريم من ألفاظ مصورة · « **ضلوا** » فهى تصورهم تائهين لا يهتدون الى طريقهم المنجية لهم · و « **سواء السبيل** » يصور الشريعة بالطريق السوى الذى لا عوج فيه ولا التواء ·

وهكذا يسوق القرآن الكريم الدليل المقنع فى فيض من اللمسات الوجدانية التى توقظ المشاعر وتنبه الأذهان ، فمن انكار لما هم عليه الى تعجب مما هم فيه ومن تقريع لهم على غفلتهم الى ترهيب لهم من عاقبة غيهم ، وترغيب فى التوبة والعودة الى الحق · بجانب ما تضمنه النظم الكريم من خصائص بلاغية سبقت الاشارة الى دلالاتها ودواعيها · وفوق ذلك كله وضوح الدليل واشراق التعبير الذى يجد فيه الخاصة اقناعا ملزما لعقولهم ، ويجد فيه العامة بيانا شافيا للحق ، وكشفا لكل شبه الباطل · وهكذا القرآن فى كل أغراضه وأساليبه · ومن أصدق من الله قيلا ·

ولننتقل الآن الى نص آخر نتنسم أريج بلاغته وننعم بهدايته ·

* * *

● **مجـادلة أهل المنطق والفلسـفة :**

قال تعالى : « **وله من فى السموات والأرض ، ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون • يسبحون الليل والنهار لا يفترون • أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون • لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون • لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون • أم اتخذوا من دونه آلهة ، قل هاتوا برهانكم ، هـذا ذكر من معى وذكر من قبلى ، بل أكثرهم لا يعلمون الحق ، فهم معرضون** »(١) •

كما سبق أن أوضحنا فان الدعوة الاسلامية تخـاطب كل من يمكن تصورهم من أنواع البشر فى أى عصر ، والآيات الكريمة فى هـذا النص تتجه الى أولئك الذين اتخذوا من العقل وحده مقياسا للحق والباطل ، على الرغم مما فى منهجهم هـذا من خطأ وتجاوز فى تقدير طاقة العقل البشرى ومدى قدرته • فهى تسوق لهم الدليل العقلى اليقينى الذى لا يمكن دفعه • والقرآن الكريم فى عرضه لهذا الدليل يصوغه فى أسلوب معجز ، اذ يجمع فى تعبيره بين الاحكام الدقيق الذى يلزم الخاصة ، والوضوح البين الذى يدركه العامة ، مضيفا الى ذلك لمساته الوجـدانية التى تهز المشاعر وتسيطر على الوجـدان ، لينفذ الى العقـول وقد تهيأت لقبوله واستشرفت لادراكه •

وهذه الآيات الكريمة جاءت عقب آيات تتحـدث عن خلق السـموات والأرض وأنه لحكمة بالغة مستتبعة لغايات جليلة ، وذلك بأن تكون مبـدأ لوجود الانسان وسببا لمعاشه ، ودليلا يقوده الى معرفة الخـالق وليست عبثا ولهـوا •

« **وله من فى السموات والأرض ، ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون • يسبحون الليل والنهـار لا يفترون** » الآية الكريمة تأكيد لمـا تضمنته الآيات السابقة من خلقه سبحانه لجميع المخلوقات على حكمة بالغة ، فهى تبين أن له وحده جميع المخلوقات ، وليس لغيره دخل فى شىء منها لا خلقا ولا تدبيرا ، فكلها خاضعة له تسير وفق مشيئته • ولنتـأمل النظم الكريم : فقد قدم الظـرف « لـه » ليفيد القصر عليه سبحانه فى كل ما يتعلق بالمخلوقات فالمقام مقام اثبات وحدانيته سبحانه ، وعبر بقوله « **من فى السموات والأرض** » ليفيد عموم المخلوقات فى الكون كله فلا شىء

---

(١) الأنبياء : ١٩ ـ ٢٤ •

منها خارج عن ملكه · أما التعبير بـ « من » الخاصة بالعقلاء فمن باب التغليب · وقوله تعالى : « **ومن عنده** » كناية عن المقربين اليه من خلقه ، والمتبادر الى الذهن أنهم الملائكة المكرمون ، والمراد بالقرب منه ليس قربا مكانيا وانما هو قرب معنوى تنزيلا لكرامتهم عليه سبحانه منزلة المقربين لدى الملوك بطريق التمثيل ، وسر التمثيل أنه أبرز المعنوى فى صورة المادى تثبيتا له فى النفس · وانما خصهم بالذكر مع أنهم داخلون فيمن فى السموات والأرض من باب ذكر الخاص بعد العام لكرامتهم عنده ، واشارة الى علو شأنهم بين المخلوقات ، فهم « **لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون** » أى لا يتعالون على عبادته سبحانه ولا يفترون عنها · بل هم دائمون لا يستحسرون ولا يكلون · ونلاحظ التعبير بصيغة ـ الاستفعال ـ الدالة على المبالغة فى الحسور ، وذلك للاشارة الى أن العبادة مع ثقلها وأتعابها جديرة بأن يكل منها ويستحسر · ومع ذلك فهم دائمون عليها ·وليس المراد نفى المبالغة فى الحسور مع ثبوت أصله فى الجملة ونظير هذا قوله تعالى : « **وما أنا بظلام للعبيد** »(١) اذ المراد افادة كثرة الظلم المفروض تعلقه بالعبيد لا افادة نفى المبالغة فى الظلم مع ثبوت أصل الظلم فى الجملة ·

« **يسبحون الليل والنهار لا يفترون** » هذه الجملة جواب عما يثيره الكلام السابق من سؤال كأنه قيل : ماذا يصنعون فى عبادتهم ؟ فقيل يسبحون الليل والنهار لا يفترون ـ وهذا سر الفصل فيها والمعنى أن الملائكة المكرمين دائمو التسبيح والتمجيد لله سبحانه لا يتخلل عبادتهم فترات ينقطعون فيها عن العبادة · وفى جو هذه الصورة التى ترسمها الآيات للكون كله منقادا لله تعالى ، والملائكة مسبحة ممجدة لعظمته ، والتى تلقى المهابة فى القلوب تنتقل الآيات الى سوق الدليل العقلى على وحدانيته سبحانه منتزعة اياه من مشاهد هذا الكون ، وما فيه من تدبير واحكام يمنعان فساده ·

« **أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون · لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا** » « أم » منقطعة بمعنى بل ، والهمزة فيها مؤذنة بالاضراب عما قبلها والانكار لما بعدها ، فالاستفهام بها هو استفهام استنكار ، لاتخاذهم آلهة وتعجب وتوبيخ عليه وقوله تعالى : « **من الأرض** » متعلق بمحذوف هو صفة للآلهة والمراد به تحقير تلك الأشياء التى اتخذوها آلهة ،والاشارة الى دناءة أصلها زيادة فى توبيخهم ، وتسفيه مسلكهم أو هو متعلق بـ «**ينشرون**» أى ينشرون من الأرض أى يبعثون منها الموتى · وفيه تهكم بتلك الآلهة ·

---

(١) سورة ق : ٢٩

فمن صفات الاله الحق أن يكون قادرا على مقدور ومنها بعث الموتى · فهل آلهتهم قادرة على ذلك ؟ من الواضح أنها غير قادرة وهم لا يدعون لها ذلك ، فكيف يتخذونها آلهة ؟ « **لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا** » · لفظ « الا » بمعنى غير ، صفة للآلهة ، ولا يصح أن يكون للاستثناء ، لافضائه الى فساد المعنى ، لأنه يؤدى حينئذ الى أن يكون الفساد لكونها فيهما بدونه تعالى · وهذه الجملة ابطال لتعدد الآلهة باقامتها الدليل على استحالته · ذلك : أن المعنى لو كان فيهما آلهة غير الله لفسدتا · ولكنهما لم يفسدا ، اذن فليس هناك آلهة الا الله · وهذا الدليل يسميه المناطقة قياس الخلف · وهو اثبات المطلوب بابطال نقيضه أى أن المبطل للنقيض مثبت للحق ضرورة أن النقيضين لا يجتمعان ، ولا يخلو المحل من أحدهما ويسمى دليل التمانع · أى امتنع تعدد الآلهة لامتناع الفساد فثبتت الوحدانية · أما وجه التلازم بين الفساد وتعدد الآلهة فذلك « لأن وجود الهين متساويين فى كل الصفات مستحيل ، لأن بلوغ الكمال المطلق فى صفة من الصفات يمنع بلوغ كمال مطلق آخر فى تلك الصفة ، وأن الاثنينية لا تتحقق فى موجودين كلاهما بلا بداية ولا نهاية ولا حدود ولا فروق ، وكلاهما يريد ما يريده الآخر ، ويقدر ما يقدره ، ويعمل ما يعمله فى كل حال وفى كل صغير وكبير ، فهذان وجود واحد ، وليسا وجودين · فاذا كانا اثنين لم يكونا الا متمايزين متغايرين »(١) واذا كان الأمر كذلك فمن الممكن عقلا أن يختلفا فيريد أحدهما شيئا لا يريده الآخر · فاذا اختلفا بأن أراد أحدهما خلق شىء وأراد الآخر عدم خلقه ، فان تحققت ارادتهما معا لزم أن ذلك الشىء موجود معدوم ، وان تحققت ارادة أحدهما دون الآخر ففى هذه الحالة يكون الاله الذى تحققت ارادته هو الاله وحده حقيقة ، فى حين يكون الآخر عاجزا فلا يجدر به أن يسمى الها · وقد أورد بعضهم شبهة على هذا الدليل بأنه يجوز أن يكون اثنان وتتفق ارادتهما(٢) · ومع أن الاثنينية يستحيل معها التوافق الكامل بين الارادتين ، فقد رد بعض العلماء بأنهما اذا اتفقا فاما أن يكون اتفاقهما ضروريا فيلزم عجزهما واضطرارهما ، أو اختياريا ويمكن تقدير الخلاف بينهما ، فيتحقق الالزام ·

هذا مجمل ما يورده علماء الكلام عن الموضوع ، والواقع أننا لسنا فى حاجة الى كل هذه الفروض والتأويلات ، والدليل القرآنى فى اشراقه ووضوحه غنى عن كل هذا وانما هو مبنى على أمر بدهى تدركه الفطرة

---

(١) كتاب الله ص ٢٠٧ للاستاذ عباس العقاد ·

(٢) كتاب الفيلسوف المفترى عليه ـ ابن رشد ـ ص ٩١ ـ ٩٢ دكتور محمود قاسم ·

السليمة « فالكون قائم على النـاموس الواحـد الذى يربط بين أجـزائه جميعا ، وينسق بين أجزائه جميعا ، وبين حركات هـذه الأجزاء وحـركة المجموع المنظم · هـذا الناموس الواحد من صنع ارادة واحدة لاله واحد · فلو تعددت الذوات لتعددت الارادات ولتعددت النواميس تبعا لها ، فالارادة مظهر الذات المريدة ، والناموس مظهر الارادة النافذة · ولانعدمت الوحدة التى تنسق الجهاز الكونى كله ، وتوحد منهجه واتجاهه وسلوكه ، ولوقع الاضطراب والفساد تبعا لفقـدان التناسق ، هذا التناسق الملحـوظ الـذى لا ينكره أشد الملحدين لأنه واقع محس · وان الفطرة السليمة التى تتـلقى ايقـاع الناموس الواحـد للوجـود كله لتشـهد شهادة فطرية بوحدة هذا الناموس ووحدة الارادة التى أوجدته ، ووحدة الخالق لهذا الكون المنظم المنسق الذى لا فساد فى تكوينه ، ولا خلل فى سيره »(١) ·

« **فسبحان الله رب العرش عما يصفون** » تنزه الله تعالى عما لا يليق به من ادعـاء الشريك ، وعبر بلفظ الجلالة فى موضع الاضـمار لتربيـة المهابة ولأن الالوهية هى مناط تنزيهه تعالى عمـا لا يليق به سـبحانه · واختار من صفاته سـبحانه « **رب العرش** » لأن العرش رمز الاسـتعلاء والملك ، والمقام مقام التنزيه والتمجيد لله بعد قيام الدليل عـلى وحدانيته سبحانه وسيطرته على الكون كله ، وتسبيح الكون كله بحمده ·

« **لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون** » بيان وتأكيد لمـا يستوجبه مقـام الألوهية لله سبحانه من عظمة وجلال ، وعـزة وسلطان ، فلا سبيل الى أن يسأله أحد عما يفعل لأن الكل مخلوق والمخلوق لا يسأل الخالق · ونلاحظ ما فى قوله تعالى : « **وهم يسئلون** » من تعريض بتهديد الكفار ووعيدهم ·

« **أم اتخذوا من دونه آلهة ، قل هاتوا برهانكم ، هـذا ذكر من معى وذكر من قبلى ، بل أكثرهم لا يعلمون الحق ، فهم معرضون** » الآية الكريمة تنتقل الى لون آخر من الاستدلال على الوحدانية ومجادلة المشركين وهو ما يسمى بمطالبة الخصم بتصحيح دعواه واقامة الدليل عليهـا ، حتى اذا عجز كان ذلك اثباتا لكذبه ، وتأكيدا لدعوى مطالبه · فقد أقام القرآن الكريم الدليل اليقينى على الوحدانية فى الآية السابقة ، ثم طالبهم بالدليل على دعوى الشرك · فانه لا صحة لقول لا دليل عليه وبخاصة اذا كان الأمر يتعلق بالعقيدة الدينية ·

---

(١) فى ظلال القرآن ج ١٧ ص ٢٠ ـ ٢١ ·

ولنتأمل النظم الكريم : فقد صدرت الآية بالاستفهام الانكارى لاتخاذ الشركاء ، مع وضوح الدليل على بطلانه · ثم التعبير بـ « **برهانكم** » فسماه برهانا وأضافه الى ضميرهم تهكما بهم ، وسخرية منهم ، فهم لا يملكون شيئا من ذلك · وفيه اثارة لهم مبالغة فى اثبات عجزهم وقوله تعالى : « **هذا ذكر من معى وذكر من قبلى** » فيه زيادة اثارة لهم على اقامة البرهان ان كان لديهم ما يقولونه ، اظهارا لكمال عجزهم وانقطاع حجتهم فقد أخبرهم أن الوحدانية التى نزل بها القرآن نزلت بها كل الكتب السابقة ، وهى دين الله للبشرية كلها · فهذا دليل نقلى على صحة دعواى يؤيده الدليل العقلى الذى سقته لكم فلم تستطيعوا له دفعا · فما حجتكم أنتم ؟ ·

« **بل أكثرهم لا يعلمون الحق ، فهم معرضون** » لا فائدة من محاجة هؤلاء فأكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون عنه مستمرون فى اشراكهم مهما كررت عليهم الحجج والأدلة ·

وهكذا ساق القرآن الكريم دليل الوحدانية فى أسلوب جمع بين اقناع أكثر العقول اقتدارا وتفلسفا ، وارضاء أقربها التصاقا بالفطرة والبديهة فكان دليل الخاصة والعامة ، وهذا اعجاز لا يتطاول اليه بشر ·

ثم ساق ذلك كله فى كلمات معدودة هى فى ايجازها آية الآيات ، وفى وضوح معانيها وسلامة نظمها قمة القمم لا ترى بينها لفظة غائمة ، ولا تحس أثرا للتعقيدات المنطقية · ثم عرض ذلك كله فى أسلوب أخاذ مستخدما الاثارة الوجدانية وتحريك العواطف حتى يصل الى النفس من جميع منافذ التأثير فيها · فأين هذا من تلك الأحاجى والألغاز التى يرددها المناطقة فيضل فيها الخواص ؟

والآن ، لننتقل الى نص كريم آخر ·

★ ★ ★

● **الاقناع بضرب الأمثال :**

قال تعالى : « **ويعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقا من السموات والأرض شيئا ولا يستطيعون · فلا تضربوا لله الأمثال ، ان الله يعلم وأنتم لا تعلمون · ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شىء ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا ، هل يستوون ، الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعلمون · وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شىء وهو**

كل على مولاه أينما يوجهه لا يات بخير ، هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم »(١) ٠

هـذه الآيات الكريمة تأتى عقب آيات تذكر المشركين بنعم الله عليهم وتعددها لهم ، لتبين أن واهب هـذه النعم هـو الجدير بالعبادة لا غيره ممن لا يملك لهم شيئا ٠ ثم تأتى الآيات لتبين قبح صنيعهم حيث عبدوا من لا يستحق العبادة ٠ وتنهاهم عن الشرك ٠ ثم تمضى فتسوق لهم مثلين يشهدان بفساد تفكيرهم ووضوح ضلالهم وبعدهم عما تقتضيه العقول والأفهام وخلاصة المثلين أن العقول تأبى التسوية بين القادر والعاجز ، ولو كانا من جنس واحد ونوع واحد ٠ وهـذا أمر بدهى لا يحتاج الى اثبات ٠ فكيف يسوى هؤلاء بين ما يتخذونه آلهة من المخلوقات ، وقادر هو الذى خلقها وأبدعها ؟ وأى سفه هـذا الذى يسوى بين الخالق والمخلوق ٠٠ فليس هناك وجه للتناسب والموازنة فضلا عن التسوية والعبادة ٠ ولنتأمل ما فى الآيات من بلاغة ٠

« **ويعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقا من السموات والأرض شيئا ولا يستطيعون** » انكار لحالهم وتوبيخ لهم على عبادتهم غير الله وكفرهم لنعمه ٠ وبيان لخطأ مسلكهم ، فالمنعم هو الجدير بأن يعبد ، أما هؤلاء فهم لا يملكون لهم شيئا من الرزق لا من السموات ولا من الأرض ، بل هم لا يستطيعون أن يملكوا شيئا من ذلك لأنهم موات لاحراك بهم ٠ فكيف يستحقون العبادة ؟

« **فلا تضربوا لله الأمثال** » المراد : لا تشركوا به شيئا ٠ وعبر عنه بضرب المثل للقصد الى النهى عن الاشراك بالله تعالى فى شأن من الشئون فان ضرب المثل مبناه تشبيه حالة بحالة ، أى : لا تشبهوا بشأنه تعالى شأنا من الشئون ٠ وهـذا يلزمه النهى عن الاشراك ، فعبر بالملزوم وأراد اللازم على سبيل الكناية ، والكناية أبلغ فى اثبات المعنى لأنها كالدعوى بدليلها ويلاحظ ما فيه من التفات للاشارة الى الاهتمام بشأن المنهى عنه ٠

« **ان الله يعلم وأنتم لا تعلمون** » فيه وعيد لهم على سوء صنيعهم باشراكهم بالله ٠٠ والمعنى : ان الله يعلم ما تصنعون ، وانه ليستحق العقوبة ، وأنتم لا تعلمون ذلك ، والا لما اجترأتم عليه ٠

---

(١) النحل : ٧٣ : ٧٦ ٠

« **ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء** » المراد « بضرب » : ذكر وأورد ، والتعبير بالضرب أقوى لما فيه من معنى الاقامة والوضوح · والمثل فى الأصل بمعنى النظير والشبيه ، ثم أطلق على القول السائر الذى يمثل مضربه بموردة ، وحيث لم يكن ذلك الا قولا بديعا فيه غرابة جعلته جديرا بالتسيير فى البلاد استعير لكل حال أو قصة أو صفة عجيبة ، من غير أن يلاحظ بينها وبين شيء آخر تشبيه · والمراد بالمثل هنا المعنى الاستعارى أى أن الله قد ذكر فى كتابه تلك المقارنة التى يستدل بها على تباين الحال بين جنابه تعالى وما أشركوا به · بحيث تدل دلالة واضحة على فساد ما ارتكبوه ·

« **عبدا مملوكا لا يقدر على شيء** » هذا هو الطرف الأول من المقارنة ، وهو تفسير لقوله تعالى « مثلا » وفى الابهام ثم التوضيح اثارة لتطلع النفس الى معرفة المراد وتشوقها له ، فاذا ذكر التفسير استقر فى النفس وتمكن منها · وهو من البلاغة بمكان ·

والمراد بهذه الصفات تمييز حال هذا الطرف الذى جعلته مثلا ، فذكر أنه عبد ، ثم وصفه بأنه مملوك لتمييزه عن الحر ، فان لفظ العبد يطلق عليهما باعتبارهما عبدين لله تعالى · ثم وصفه بعدم القدرة على شيء لأن بعض العبيد قد يأذن له سيده فى التصرف فى بعض الأمور . فنص على أن المضروب به المثل هو على الأصل المعهود فى المماليك من العجز التام وعدم القدرة على التصرف فى شيء ما · وفى وقوع النكرة فى سياق النفى « **لا يقدر على شيء** » ما يفيد العموم وذلك لتأكيد عجزهم الكامل عن أى شيء لتكتمل لهذا الطرف كل صفات العجز ·

« **ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا** » هذا هو الطرف الثانى فى المقارنة ، انسان حر رزقه الله رزقا حلالا طيبا ، ووفقه الى حسن التصرف فيما رزقه فهو ينفقه فى مرضاة الله · وتلاحظ ما فى النظم الشريف · وأول ذلك الالتفات الى التكلم للاشعار باختلاف حالى الطرفين والايماء الى ما بينهما من تفاوت ، ثم نسبة الرزق الى الله ، وتأكيد ذلك بقوله « منا » بنون العظمة ، تنويها بشأن الرزق ابرازا لما فيه من فضل ووصف الرزق بالحسن دون بيان متعلقه ليشمل كل ما يكون به الحسن من الكثرة والحل وغيرها · ثم ان هذا الانفاق يكون ـ سرا وجهرا ـ والمراد المبالغة فى مدحه وبيان كثرة انفاقه وشموله · ويلاحظ تقديم السر على الجهر للاشارة الى فضله عليه · كما يلاحظ التعبير ، بالفعل للدلالة على تجدد الانفاق وهكذا يؤكد النص الكريم أن هذا

الطرف الثانى قد استجمع كل معانى الخير ، كما استجمع الأول كل معانى العجز « **هل يستوون** » استفهام بمعنى النفى ، أى : لا يستوون ، فذلك مما لا تنكره العقول وضمير الجمع للاشارة الى أن المقصود هو المقارنة بين الجنسين المذكورين لا بين فردين معينين منهما · والمعنى : هل يستوى هذا العبد المملوك الذى لا نفع فيه مع الحر الموصوف بما ذكر من الصفات ؟ واذا كانت العقول تأبى التسوية بين هذين ، وكلاهما انسان ، أيجوز أن تتخذ الحجارة آلهة وأن يسوى بينها وبين الخالق ؟ سبحانه عما يقولون فله وحده الربوبية والعبادة ··

« **الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعلمون** » له الحمد كله فمنه النعم كلها ولا يستحقه أحد سواه ، ولكن أكثرهم لا يعلمون هذا ، فيشركوا به ·

« **وضرب الله مثلا رجلين ، أحدهما أبكم لا يقدر على شىء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير** » ·

هذا هو الطرف الأول من المثل الثانى رجل أبكم ولد هكذا لا يدرك ما يلقى اليه ، ولا يمكنه الافصاح عما فى نفسه ، وهو فوق ذلك عبء على من يعوله ويلى أمره ، وفوق هذا وذاك لا يرجى منه خير أو نفع أينما يوجهه مولاه لا يأت بخير ·

ونلاحظ فى النظم الابهام فى قوله « **مثلا** » ثم البيان بذكر التفسير ثم اختيار لفظ « **أبكم** » وهو الذى لاينطق لا على علة طارئة بل منذ ولادته · وقد ثبت أن البكم مسبب عن الصمم ، فلا يحاكى الطفل الكلام لأنه لا يسمعه · وهذا الوصف يجعله فى أدنى درجات الادراك وسوء الفهم ثم وصفه بعد ذلك بصفات تؤكد انحطاط منزلته فهو لا يقدر على شىء فلا يستطيع القيام بشئونه ولا شئون غيره ·

« **هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم** » هل يتساوى هذا ـ مع ما فيه من النقائص المذكورة ـ مع رجل آخر على النقيض منه فى صفاته · فهو ذو رأى وكفاية ، ينفع الناس ويحثهم على العدل وفوق ذلك ملتزم بالطريق السوى لا يحيد عنه ولا يميل الى غيره ؟ فالرجلان قد تساويا فى الانسانية ولكنهما تفاوتا فقط فى الصفات ومع ذلك فلا يمكن لعاقل أن يسوى بينهما · فكيف يصح لعاقل أن يشرك مع الله أصناما أو أوثانا ؟ وليس هناك وجه للتناسب فضلا عن التسوية بينهما ، انه لجهل عظيم ·· وهكذا يضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ·

★★★

● **الاقناع باسلوب الاستفهام :**

قال تعالى : « قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر ، فسيقولون الله ، فقل أفلا تتقون · فذلكم الله ربكم الحق ، فماذا بعد الحق الا الضلال ، فانى تصرفون · كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون · قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده ، قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده ، فأنى تؤفكون · قل هل من شركائكم من يهدى الى الحق ، قل الله يهدى للحق ، أفمن يهدى الى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدى الا أن يهدى · فما لكم كيف تحكمون · وما يتبع أكثرهم الا ظنا ، ان الظن لا يغنى من الحق شيئا ، ان الله عليم بما يفعلون »(١) ·

تأتى هذه الآيات الكريمة عقب آيات تصور موقف المشركين يوم القيامة وكيف يتبرأ منهم من اتخذوهم آلهة من دون الله · وكيف يواجهون مصيرهم حيث لا يغنى هؤلاء عنهم شيئا · وبعد هذا الترهيب الذى يحملهم على مراجعة موقفهم قبل فوات الأوان ، تأتى هذه الآيات لترشدهم الى طريق النجاة ، والى الحق الذى يجنبهم كل هذا الويل الذى يترصدهم · ولكنها لا تسوق لهم ذلك بالطريق الاخبارى ، بل تسوقه فى أسلوب الاستفهام التقريرى ، الذى يتضمن ـ من الخصائص الزائدة على المعنى المراد الاخبار به ـ ما يجعله أشد اثارة للاهتمام وتأثيرا فى النفوس · متضمنا فى نفس الوقت الالزام بالحجة التى لا تدفع ·

ومرجع ذلك الى أن الاستفهام فى أصل وضعه يتطلب جوابا يحتاج الى تفكير يقع به هذا الجواب فى موقعه ، وهذا يحمل المخاطب الى توجيه كل اهتمامه لما يلقى اليه ليتمكن من فهمه ثم الاجابة عنه · فاذا كان الاستفهام تقريريا فمعنى ذلك أنه يحمل المخاطب على الاعتراف وينتزع منه الاجابة بعد التدبر والأناة التى يقتضيها أسلوب الاستفهام ، وهذا الاعتراف هو ما يريده المستفهم لأنه يؤكد حجته ويبطل حجة خصمه · ولا شك أن هذا أبلغ من الأسلوب الاخبارى لما يتضمنه من هذه الخصائص ·

« **قل من يرزقكم من السماء والأرض** » استفهام تقرير · فقد كانوا يعتقدون أن الله هو الذى يرزقهم وكانوا لا ينسبون الرزق الى الشركاء

---

(١) يونس : ٣١ ـ ٣٦ ·

فلا يمكن الا أن تكون اجابتهم : الله · ويلاحظ ما فى التعبير من الاشارة الى عظيم نعم الله عليهم حيث أوضح أن الرزق يأتيهم من السماء والأرض وذلك لفتا لأنظارهم الى حق هذا المنعم عليهم ·

« **أمن يملك السمع والأبصـــار** » · « أم » فى « أمن » منقطعة وهى تتضمن الاستفهام والاضراب عما قبلها ، وليس معنى الاضراب هنا هـو ابطال الاستفهام الأول ، بل هو على وجه الانتقـال عنه الى استفهام آخر للاشارة الى أنه كاف فى اثبات المقصود دون حاجة الى ما سبقه · والمراد بالملك هنا هو القدرة على خلقهما وتسويتهما وحفظهما من الآفات · والتعبير بالملك أبلغ لأنه يدل على كل هذه المعانى بصورة أكبر وأكمل شأن المالك فيما يملك · واختيار السمع والبصر فى التقرير بمالكهما فى هاتين الحاستين من بديع صنع الله وعظيم فضله الذى يتزايد ادراك عظمتـه كلمـا ازداد الانسان علما بأسرار الخلق ، فاذا كان العرب الذين خاطبهم القرآن يدركون ما فى السمع والابصار من النعمة الجزيلة والقدرة الباهرة ادراكا مجملا · فان انسان اليوم ليعلم أن هذه الحواس هى عالم بذاته وأن ما اكتشفه علم التشريح مثلا من أن شبكية العين تضم ملايين الأعصاب ، كل منها يؤدى وظيفة لا غنى عنها لتتم عملية الرؤية · أقول : ان ذلك ليدفع الانسان دفعا الى الاقرار بأن الله وحده هو القادر على كل هذا الابداع المعجز ، وتبقى دعوة القرآن للناس قائمة ملزمة بالاعتراف والاقرار له وحده بالربوبية . بل ان دلالتها والزامها تتضاعف كلما مضى الزمن وتقدم الانسان ·

« **ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى** » · تقرير كسابقه لا يملك بشر الا أن يجيب عليه بالاقرار بأنه الله وحده ، فمعجزة الحيـاة وسرها كانت وستظل بعيدا عن كل قدرة الا قدرة المولى جل وعلا ·

« **ومن يدبر الأمر** » · أى ومن يدبر أمر العالم كله بسماواته وأراضيه وما فيهما من مخلوقات وعوالم ، ويضع كـل شىء فى موضعه ويهيىء له ما يضمن بقاءه وعدم تعارضه مع غيره ؟ وهذا تعميم جامع بعد أن خصص بعض الأشياء بالذكر قبله ، وذلك لتأكيد شـمول قدرته لكل شىء ، ويلاحظ ما فيه من ايجاز قصر استدعاه مقام الجدل الذى يقتضى التركيز على اثبات الحجة ·

« **فسيقولون الله** » انه الجواب المتعين ، الذى لا يمكن الاجابة بغيره ، ويلاحظ ما فى التعبير من ايجاز بحذف الخبر والتقدير : الله يفعل ما ذكر من

الأمور لا غيره · وسر الحذف هنا هو ما يضيفه من جمال على التعبير يبدو عندما نقارن بينه وبين الكلام مع عدم الحذف · كما يلاحظ التعبير ـ بالسين ـ دون « سوف » وما يوحى به من سرعة ردهم وعدم احتياجهم الى وقت للتفكير لوضوح الأمر ·

« **فقل أفلا تتقون** » · يأله من تناقض صارخ فى موقف هؤلاء المشركين·· كيف يقرون بأن ذلك كله لله ، ثم يتجرأون على فعل ما يعرضهم لعقابه وانتقامه بالاشراك به ؟ انه لما تنكره العقول ولا ترضاه ، ألا يقى هؤلاء أنفسهم انتقام هذا الاله الذى يقرون بأنه مالك كل ذلك ومدبره فالاستفهام هنا لانكار عدم الاتقاء بمعنى انكار الواقع ، لا بمعنى انكار الوقوع · والفاء للعطف على مقدر يدل عليه النظم الكريم أى : أتعلمون ذلك فلا تقون أنفسكم عذابه الذى ذكر لكم ؟ (١) ·

« **فذلكم الله ربكم الحق ، فماذا بعد الحق الا الضلال ، فأنى تصرفون** »

فذلكم الذى اعترفتم بأنه وحده المتصف بالصفات السابقة والمستحق لها : هو الله ، ربكم الحق ، لأن هذه هى صفات الالوهية واذا كان هذا هو الاله الحق فما يكون سواه ممن تزعمون أنهم شركاء له ؟ ليس بعد الحق الا الضلال والباطل ، فاشراككم به ضلال وباطل ·

ويلاحظ ما فى التعبير بلام البعد فى اسم الاشارة من دلالة على عظمة المشار اليه جل وعلا ، وما فيه أيضا من طباق بين الحق والضلال · واذا كان الغرض هنا هو ابراز التناقض بين اقرارهم بالله خالقا ومدبرا ، وبين اشراكهم به ، فان أسلوب الطباق هو ما يقتضيه المقام لابراز المعنى وتأكيده وليس مجرد حلية لفظية لا يقتضيها المعنى · وقوله تعالى : « **بعد الحق** » المراد به ـ غير الحق ـ فاستعار « بعد » للتعبير بها عن المعنى لما فيها من دلالة على التباعد والانفصال الكامل بين الحق والباطل وما توحى به من تصوير المعنى وابرازه · واظهار ـ الحق ـ بدلا من ضميره لزيادة التقرير ومراعاة كمال المقابلة بينه وبين الضلال · أما الاستفهام بـ « ماذا » فهو استفهام انكارى ، ولكنه هنا انكار للوقوع ونفى له · أى : ليس غير الحق كما يلاحظ ما فى التعبير بالمصدر فى قوله « الضلال » من قصد المبالغة كأنه نفس الضلال والضياع ·

---

(١) تفسير أبى السعود جـ ٢ ص ٣٢٤ ·

« **فانى تصرفون** » · « **أنى** » بمعنى كيف · أى : كيف يصرفون عن عبادة الاله الحق الى الضلال وعبادة الأصنام ؟ والاستفهام أيضا انكارى ويتضمن التعجب من حالهم واختيارهم ، ويلاحظ ما فيه من توجيه الانكار الى الكيفية لا الى الفعل ، لأن فيه من المبالغة ما ليس فى توجيهه الى الفعل « لأن كل موجود لابد أن يكون وجوده على حـال من الأحوال قطعـا فاذا انتفت جميع الأحوال فقد انتفى وجوده على الطريق البرهانى · كمـا يلاحظ اختيار صيغة المبنى للمفعول للاشارة الى أن الانصراف من الحق الى الضلال مما لا يصدر عن عاقل بارادته ، وانما يقع عند وقوعه بالقسر من جهة صارف خارجى » (١) ·

« **كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون** » كما حقت الربوبية لله تعالى حقت كلمة ربك على الذين فسـقوا · والمراد بـ « **كلمة ربك** » عدم ايمانهم ، فقوله تعالى : « **أنهم لا يؤمنون** » بدل من قوله تعالى : « **كلمة ربك** » ·· ويجوز أن يكون قوله تعالى : « **أنهم لا يؤمنون** » تعليـل لحكم الله عليهم بعدم الايمان وأن ذلك بسبب انصرافهم الى الضلال ، والمراد ايعـادهم بالعذاب وتهديدهم به · ويلاحظ ما فى التعبير الكريم من اختيار لفظ « **حقت** » لتأكيد أن ذلك أمر واقع لا محالة ، وكلمة « **فسقوا** » وما تصوره من خروجهم الكامل عن حيز الايمان · وتأكيد عدم ايمانهم بالله ·

« **قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده ، فانى تؤفكون** » · تذكر الآيات تقـريرات أخرى تؤدى الى اثبـات التوحيد وحقيقته ،ولكنها تختلف عن الأولى وان كانت تؤدى الى نفس النتيجة المطلوبة ، فهناك كان المطلوب اقرارهم بأن الله وحده المستحق لصفات الألوهية لنصل الى نفيها عن الشركاء ، وهنا المطلوب الاقرار بنفى صفات الألوهية عن الشركاء لنصل الى استحقاق الله لها وانفراده بالألوهية وذلك تأكيدا للمعنى بعرضه فى صورة مختلفة يقوى بعضها بعضا ·

ويلاحظ هنا أن المطلوب منهم أن يقروا بعدم قدرة الشركاء على بدء الخلق واعادته ، مع أنهم ينكرون الاعادة والبعث · ولكن القرآن الكريم لم يقم لانكارهم هذا وزنا ، لأن فى اعترافهم بالقدرة على البـدء دليـلا على الاعادة بطريق الأولى ، فانكارهم كلا انكار ، فهو أمر بين لا ينكره الا مكابر

---

(١) انظر تفسير أبى السعود جـ ٢ ص ٢٢٥ ·

متعنت · كما يلاحظ أن الاجابة هنا قد أمر الرسول عليه الصلاة والسلام بقولها ، فهو يقررها لهم اعتمادا على تسليمهم بالمقدمات والنتائج · وقوله تعالى : « **قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده** » وان لم يكن نفس المطلوب منهم الانه يتضمنه ، فالمطلوب اجابتهم بـ ـ لا ـ ليس من الشركاء من يفعل ذلك · وما أمر الرسول بقوله يؤدى اليه ، حيث عبر بطريق القصر ، الدال على انفراده به سبحانه · وفى هذا الأسلوب اشارة الى تعين الجواب وتحققه وأنهم لا يستطيعون الاجابة بغير ذلك · كما يلاحظ اعادة الجملة كلها فى الجواب غير محذوفة الخبر لمزيد التأكيد الذى يستدعيه المقام ·

« **فأنى تؤفكون** » انكار لتركهم الحق أى كيف تقلبون من الحق الى الباطل وفيه من البلاغة ما سبقت الاشارة اليه فى قوله تعالى : « **فأنى تصرفون** » ·

« **قل هل من شركائكم من يهدى الى الحق ، قل الله يهدى للحق ، أفمن يهدى الى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدى الا أن يهدى** » · تقرير آخر قصد به الاستدلال على الوحدانية ، والزام لهم بعد الزام ، وافحام بعد افحام ، فكل واحد كاف فى الدلالة ولكنه التأكيد الذى يقتضيه المقام وتستوجبه أهمية القضية ، ولا عجب فهى أساس الأمر كله · ويلاحظ ما فى التعبير من عدم النص على طرق الهداية فكأنه يقول لهم : هل من شركائكم من يستطيع الهداية بوجه من الوجوه ؟ وذلك أقوى فى الالزام والتبكيت · فلو عين طرق الهداية كارسال الرسل والتوفيق والتدبر لكان الاقرار بالعجز عن ذلك لا يستلزم الاقرار بالعجز عن القدرة على الهداية مطلقا · والمطلوب نفيها عنهم بأى وجه من الوجود ·

كما يلاحظ تعدية الفعل « يهدى » مرة بـ « الى » ومرة باللام حين أسنده الى الله تعالى · وذلك لأن ـ هدى ـ يتعدى بـ « الى » لتضمنه معنى الانتهاء ، كما يتعدى ـ باللام ـ للدلالة على أن المنتهى غاية الهداية · وهذا سر التعدية باللام فى جانب الله تعالى (١) ·

« **أفمن يهدى الى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدى الا أن يهدى** » ؟ قوله تعالى : « **يهدى** » بالتشديد أصله يهتدى ، فأدغمت التاء فى الدال وكسرت الهاء لالتقاء الساكنين · والمعنى : أيهما أولى بالاتباع والعبادة ؟ ذلك القادر على الهداية أم ذلك العاجز لا عن هداية غيره فحسب بل هو

---

(١) انظر تفسير أبى السعود ج ٢ ص ٣٢٦ ·

عاجز أيضا أن يهتدى الا أن يهديه غيره ؟· وذلك شامل لكل من يتخذونهم شركاء من غير العقلاء ـ كالأصنام ـ والعقلاء ـ كعيسى عليه السلام والملائكة وعزير وغيرهم ، لأن العاقل محتاج فى هدايته الى هداية الله له · والاستفهام للتقريع والتبكيت والتعجب من غفلتهم وضلالهم ·

واسم التفضيل ـ أحق ـ اما أن يكون على أصله والمفضل عليه محذوف ·· تقديره كما مر أم من لا يهدى أحق ؟ واما بمعنى حقيقى وجدير بالاتباع ولعل الوجه الثانى انسب للمقام ·

« **فما لكم** » ماذا دهاكم وأى شىء لكم فى اتخاذكم شركاء لله تعالى ؟ والاستفهام للانكار والتوبيخ والتعجب اثارة لهم كى يثوبوا الى رشدهم ·

« **كيف تحكمون** » · كيف تحكمون بما يقضى العقل ببطلانه وتقوم كل الحجج القاطعة على نقضه ؟ والاستفهام هنا أيضا للانكار والتشنيع والتعجب والافحام · حثا لهم على الاقرار بوحدانية الله تعالى ·

« **وما يتبع أكثرهم الا ظنا ، ان الظن لا يغنى من الحق شيئا ، ان الله عليم بما يفعلون** » ·

هذا بيان لحقيقة عقيدتهم فى اتخاذ الشركاء وأنهم لا يقيمونها على يقين وأدلة بل يتبعون ظنونا واهية · والعقائد لابد أن تقوم على العلم اليقينى لا على الظنون · ويلاحظ ما فى التعبير من قصر بـ « ما » و « الا » للتوكيد ، ثم تنكير ـ ظنا ـ وما يوحى به من استهانة به ، وأنه لا يغنى فى مجال العقائد · ثم تخصيص هذا الاتباع بـ « أكثرهم » للاشعار بأن بعضهم قد يتبعون العلم ، فيقفون على حقيقة التوحيد وبطلان الشرك لكن لا يقبلونه مكابرة وعنادا » (١) ثم الطباق بين « الظن » و « الحق » للاشارة الى ما يجب أن يكونوا عليه وما هم فيه فعلا من الأوهام والظنون ، التى لا تغنى شيئا ·

« **ان الله عليم بما يفعلون** » · المراد به التهديد والايعاد على أفعالهم وعدم استجابتهم للحق بعد ما تبين ··

---

(١) تفسير أبى السعود جـ ٢ ص ٢٢٧ ·

هذا هو النص الكريم ، فهل يستطيع أحد أن يقرأه أو يستمع اليه دون أن يجد نفسه مشدودا اليه مستجمعا كل شوارد فكره ، مركزا انتباهه وحواسه ، ليلاحق هذه الاستفهامات المتتابعة والتساؤلات المتلاحقة ليعى مدلولها ، ويتدبر مراميها ، وينطق بالاجابة المتعينة التى لا يمارى فيها مجادل ؟ ان هذا هو سر ذلك الأسلوب وتأثيره ، فاذا أضفنا اليه ذلك التكرار للأدلة والحجج التى يكفى كل منها فى الالزام والافحام وما يؤديه هذا من توكيد للمعنى وتثبيت للفكرة · وبجانب كل ذلك اللمسات التى تضمنها النص الكريم والتى أشرنا اليها فى سياق دراستنا لبلاغته ، كل ذلك جعل منه قمة فى البلاغة والتأثير ، وهو ما تستلزمه الدعوة ويقتضيه الاقناع ·

وبعد ·· فهذا هو أسلوب الجدل القرآنى فى قضية الوحدانية كما لمسناه من دراستنا لبعض النصوص القرآنية التى يزخر الكتاب الكريم بفيض منها ، لم يترك لهم حجة الا نقضها ، ولم يدع شبهة الا أبطلها ولا بابا ينفذ منه شك الا أوصده ، ثم قدم الدليل تلو الدليل ، وأقام الشاهد اثر الشاهد ، بما لا يدع مجالا لمستريب أو حجة لمكابر ، ولون فى طرق عرضه ، فمن قصص مشوق يبث فى ثناياه ما يريد من أدلة وحجج ويعقب عليه بما يكشف عن وجه الحق جليا مشرقا ، الى منطق عقلى ، لا يمارى فيه أحد ، ولا يصد عنه الا من غلبت عليه شقوته فاثر العناد والاستكبار ، الى ضرب للأمثال التى تعرض الحجة فى صورة ملموسة يراها المكابر رأى العين ، الى تقريرهم واستنطاقهم بالحق الذى لا يمكن لهم الا أن يعترفوا به ويعلنوه ·

وكل ذلك فى عرض معجز ، يأخذ بمجامع الوجدان ويتسلل الى النفوس رضيت أم أبت بما يتضمنه من لمسات مؤثرة ، وصور موحية ولفتات عميقة ، حتى أوفى بكل ما يلزم بالحق ، ويكشف الزيف · فلا عذر لمعتذر ولا حجة لمجادل ، وصدق الله العظيم :

« وقل الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، انا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها ، وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه ، بئس الشراب وساءت مرتفقا » (١) ·

« وربك الغفور ذو الرحمة ، لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب ، بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا » (٢) ·

★★★

---

(١) الكهف : ٢٩ ·

(٢) الكهف : ٥٨ ·

● **الأسلوب التلقينى :**

عند دراستنا للآية الكريمة : « **ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن** » (١) أشرنا الى الحكمة فى تعدد أساليب الدعوة ، وأن ذلك راجع الى اختلاف الناس فى استعدادهم لقبول الحق وتفاوت موقفهم منه ٠

ومن الأساليب التى عنى القرآن بها فى توجيه الدعوة ومحاولة الاقناع الأسلوب التلقينى ، وهو يعتمد على سوق القضايا ، وتقرير الحقيقة وبيانها بيانا شافيا ، تطمئن اليه العقول بما يتخلله من شواهد الصدق ، وتهش له القلوب بما تجده فيه من ارضاء لتطلعها الى معرفة الحق وارواء لظمئها الى الحقيقة ٠

وقد كان الناس ومايزالون مختلفين فى موقفهم من الدعوة منذ بدئها تبعا لطبيعة كل منهم واستعداده الفطرى ، وللعوامل الفكرية والاجتماعية التى تؤثر فى اتجاهه ، وتحدد موقفه ، وبالتالى تعين ما يناسبه من أسلوب ٠

لقد كانت هناك مجموعة من الباحثين عن الحق . بعد أن رفضوا الأصنام كفكرة صحيحة للألوهية ، فعاشوا فى قلق دائم وتطلع مستمر الى صوت يكشف لهم وجه الحقيقة ، ويأخذ بأيديهم الى ما يشفى نفوسهم مما تعانيه من حيرة ٠ وكان هناك بعض من أهل الكتاب الذين هالهم ما يجدونه فى كتبهم ـ بعد أن حرفت ـ من تناقض سلبهم أمن اليقين فى دينهم ، وروعهم ما لمسوه من خلافات بين المذاهب والفرق لديهم ، تقوم على أمور تمس جوهر العقيدة ، وهم يرون كل فريق يلعن الآخر ويكفره ٠ فأين الحق وسط كل هذه الآراء المتعارضة ؟

وكان هناك الكثيرون ممن تأثروا بدعوة الاسلام الى التجرد من كل العوامل التى تؤثر فى التفكير وتحول بين الانسان وبين الاستجابة للحق وازالة الأغشية التى تصنعها التقاليد والمصالح والعصبية ، والاتجاه بتجرد واخلاص الى الحق وحده ٠ وهناك الجماهير التى لا تملك من الثقافة ما يمكنها من أن تزن الأمور وتفهم الأدلة ، بل اعتادت أن تسمع لأصحاب الكلمة فى مجتمعاتها ٠

---

(١) النحل : ١٢٥ ٠

كل هؤلاء وغيرهم ، وجه اليهم القرآن الكريم دعوته بأسلوب تلقينى تقرر فيه الحقيقة واضحة جلية ، بريئة من كل تناقض ، مدعومة بشواهد صدقها محاطة بكل ما يؤكدها ويحمل على قبولها متى خلصت النيات ، وصلحت النفوس واتجهت الى الحق ٠

والآن الى بعض النصوص القرآنية التى تمثل هذا الأسلوب :

قال تعالى : « ان الله فالق الحب والنوى ، يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ، ذلكم الله ، فانى تؤفكون ٠ فالق الاصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ، ذلك تقدير العزيز العليم ٠ وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر ، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ٠ وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع ، قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون ٠ وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه ، انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه ، ان فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ٠ وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم ، وخرقوا له بنين وبنات بغير علم ، سبحانه وتعالى عما يصفون ٠ بديع السموات والأرض ، أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ، وخلق كل شىء ، وهو بكل شىء عليم ٠ ذلكم الله ربكم ، لا اله الا هو ، خالق كل شىء فاعبدوه . وهو على كل شىء وكيل ٠ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » (١) ٠

هذه الآيات الكريمة من سورة الأنعام ، احدى السور المكية وهى تعالج فى مجملها القضايا الأساسية فى العقيدة الاسلامية وعلى رأسها قضية التوحيد ، والآيات تعالج هذه القضية بأسلوب متميز ، يعتمد على تقرير بعض الحقائق الكونية الملموسة ، وتسوقها فى أسلوب تلقينى يكشف عن الحقيقة الخالصة ، ليتملاها العقل البشرى ويتدبر دلالتها التى تتجلى من ورائها يد المبدع وتقديره وتدبيره ، ويستقبلها أيضا الوجدان ليستشف وحيها وما تلقيه فى النفس من نور يهدى البصيرة ، ويأخذ بزمام النفس بكل قواها نحو الحق المبين ٠

---

(١) الانعام : ٩٥ ـ ١٠٣ ٠

وستظل هـذه الآيات نورا هـاديا للبشرية حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، بل ان سناها ليزداد اشراقا وتألقا كلما مضى الزمن ، وحقق العـلم مزيدا من الانتصـارات فى مجال الكشف عن نواميس الكون وأسراره التى تتضافر كلها فى تأكيد عقيدة الالوهية والتوحيد ، ولا تدع مجالا لأى تفسير آخر لما فى الكون من تدبير معجـز واحكام خارق ، كما سنشير الى بعضه عند دراستنا للنص الكريم · وبالله التوفيق ومنه العون ·

« **ان الله فالق الحب والنوى ، يخرج الحى من الميت ، ومخرج الميت من الحى** » هذه حقيقة يصورها النص الكريم ويعرضها سافرة أمام عقـل الانسان ووجدانه ليتدبر أمـرها ويستكشف أسرارها ، وهو على يقين بأن تدبره واستكشافه سيضع يده حتما ـ اذا أخلص للحق وتخلى عن العناد والمكابرة ـ على الحقيقة الناطقة بأن الله وحده دون سواه هو القادر على ذلك ، ومن ثم فهو وحده الحقيق بالالوهية والعبودية ·

« **ان الله فالق الحب والنوى** » وفى كل لحظة تتكرر هذه العملية أمام أبصارنا · تنفلق الحبة الساكنة فتخرج منها نبتة ، والنواة الهامدة فتخرج منها شجرة · ولكن ما سر الحياة الكامنة فى الحبة أو النواة التى نشأت عنها النبتة أو الشجرة ؟ انه السر الالهى الذى لا يشاركه فيه أحد ، ولا يقدر على صنعه أحد · هـذه حقيقة يستوى فى ادراكها والاقـرار بها العـربى البسيط والعالم المتخصص ·

يقول جون زمزمان : « ان هناك قوة داخل البذرة تنبثق فى الظـروف الملائمة فتؤدى الى قيام كثير من التفاعلات المتشـابكة التى تعمـل معا فى توافق عجيب ، والبذرة ـ التى بدأت من اتحاد خليتين مجهريتين تتألف كل منهما من عدد كبير من العناصر والعمليات ـ تكون فردا جديدا يشق طريقه فى الحياة ويكون مشابها للنبات الذى انتجه » · ثم يتسـاءل « فمن الذى أوجـد تلك القوانين العـديدة التى تتحـكم فى وراثة الصفات وفى نمو النبات » ؟ ثم يجيب « يعتبر التسـليم بوجود الخالق أمـرا بدهيا تفـرضه علينا عقولنا » (١) ·

---

(١) الله يتجلى فى عصر العلم ص ١٢٢ ـ ١٢٤ ·

هذه اجابة العلم فى القرن العشرين وهى ذاتها ما تقرره الآية الكريمة « **ذلكم الله ، فأنى تؤفكون** » · ولنتأمل النظم الكريم : ـ الفلق ـ هو الشق بابانة ، وهو لفظ يصور بجرسه ومعناه ما يحدث فى الحبة أو النواة عند خروج النبات منها ·

« **يخرج الحى من الميت** » اذا اعتبرنا أن المراد من الحى هو النبات وبأن الميت هو الحبة أو النواة كان اطلاق الميت عليهـا من باب الاستعارة لأن بهما فى الحقيقة حياة ، ومبنى الاستعارة هو تشبيههما بالميت نظـرا لما يبدوان عليه من السـكون والخمود والاستعارة أبلغ فى اثبات قدرة الله · فاخراج الحى من ميت أعجب من اخراجه من ساكن خامد ، وقيل المعنى : يخرج ما ينمو كالنبات مما لا ينمو كالحب ، « **ومخرج الميت من الحى** » عكس الأول أى يخرج الحب من الشجرة مثلا ·

وتلاحظ ما فى التعبير الكـريم من طباق بين الحى والميت ، يبرز ما بينهما من تضاد كامل ليكون تولد أحدهما من الآخر أبلغ فى اثبات القدرة وتأكيدها كما يلاحظ التعبير بالفعل المضارع فى « **يخرج الحى** » وبالاسم فى « **مخـرج الميت** » وسر هـذا التفاوت فى التعبير عن المعنيين أن اخراج الحى من الميت أدل على القدرة من اخراج الميت من الحى ، ثم هو أيضا أول الحالين والنظر أول ما يبدأ فيه ، فكان أولى بالعناية به ولهـذا عبر عنه بالمضارع قصدا الى استحضار صورته فى ذهن السامع · وهـذا التصوير والاستحضار انما يتمكن فى أدائهما الفعل المضـارع دون اسم الفاعل أو الماضى ، وسهل عطف الاسم على الفعل وحسـنه أن اسم الفـاعل فى معنى الفعل المضارع فكل واحد منهما يقدر بالآخر فلا مانع من عطفه عليه (١) ·

« **ذلكم الله** » اشارة الى القـادر على ذلك سبحانه وفيه تنبيه الى أن استحقاقه الالوهية مبنى على اتصـافه تعـالى بالصفات المذكورة ويلاحظ ما فيه من معنى البعد تنبيها على رفعة شـأنه تعالى ، فالمقام مقام اثبات القدرة وتعظيم صاحبها ·

« **فأنى تؤفكون** » أى كيف تصرفون عن عبادته الى غيره · والاستفهام انكارى قصد به التقريع والتعجب · اشـارة لهم وحثا على اتباع ما يوجبه التفكير السليم ·

---

(١) انظر هامش تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٣٧ ـ ٣٨ ·

« **فالق الاصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا** » مشهد ثان يعرضه الكتاب الحكيم على العقول والقلوب لتدرك دلالته وايحاءه وتتبين طريقها الى الحق · والاصباح مصدر سمى به الصبح · والمراد فالق ظلمه الاصباح وهى الغبش فى آخر الليل لينبثق عنها نور الفجر واشراقة الصباح ، أو فالق الاصباح الذى هو عمود الفجر عن بياض النهار واسفاره ·

ويلاحظ ما فى التعبير من تصوير لظاهرة انبثاق النور فى الصباح وتلاشى الظلمة شيئا فشيئا · كأنها شىء حسى ينشق فيخرج منه النور · واهنا ضعيفا ثم ينمو وينتشر تثبيتا للمعنى واثارة للخيال ، كما يلاحظ التناسق البديع بين هذه الصورة وصورة انفلاق الحبة عن النبتة الضعيفة لا تلبث أن تقوى فتطول وتنتشر فروعها ·

« **وجعل الليل سكنا** » والسكن هو ما يسكن اليه الانسان ويطمئن استئناسا به واستراحا اليه ، أطلق على الليل لأنه يطمئن اليه المجهد فى النهار فيجد فيه راحته وجمامه ، ويلاحظ هنا أيضا التناسق بين الحى والميت فى الصورة الأولى والنهار والليل فى الصورة الثانية · هذا التناسق الذى يثير الانتباه ·

« **والشمس والقمر حسبانا** » الحسبان مصدر حسب · والمعنى أن الشمس والقمر مجعولان حسبانا أى على حسبان · فحركتهما محسوبة مقدرة وحجمهما محسوب مقدر ، وأبعادهما محسوبة مقدرة ، وكل ما فيهما مقدر محسوب ، ولا يمكن أن تصلح الحياة الا بهذا التقدير والحساب ، فلو كانا على غير ما قدرا عليه لاستحالت الحياة وفسد الكون ·

هذا التقدير وهذا الحساب الدقيق الذى ينشأ عنه تعاقب الليل والنهار وصلاحية الأرض للحياة هو تقدير العزيز القوى القاهر الذى لا يستعصى عليه شىء ، العليم الذى يحيط علمه بكل شىء ·

وهذا المشهد وما فيه من تعاقب الليل والنهار فى انتظام لا يتخلف ولا يختل ، وكون الشمس والقمر بل وكل ما فى الكون بهذا التقدير الدقيق المعجز الدال على العزيز العليم ، يجد فيه العربى البسيط ما يقنع عقله ويملأ قلبه اطمئنانا ويقينا ، كما يجد العالم المتخصص فيه ذلك أيضا مدعما

بالدليل العلمى الذى كشف عن أسرار وأسرار تلزم العقل بالاقرار وتغمر القلب باليقين (١) ٠

ولا يفوتنا أن نشير الى ما فى التعبير بالمصدر « حسبانا » من مبالغة يقتضيها المقام بل يحتمها كما سبق ٠ وأن نشير أيضا الى ما فى « الشمس والقمر » من التناسب الذى يطلقون عليه مراعاة النظير ٠ كما نشير ايضا الى ما فى الفاصلة وهى قوله تعالى : « **العزيز العليم** » من اطمئنان فى موضعها ، وتعلق معناها بمعنى الآية كلها ، حتى لتوحى الآية بها قبل النطق بها ٠

« **وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر ، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون** » مشهد آخر تعرضه الآيات الكريمة وهو شديد الارتباط بالمشهد السابق ومتمم له ، فقد كانوا وما يزالون يهتدون بالنجوم فى متاهات البر والبحر ٠ ولا يعنى جعلها للاهتداء أن ذلك هو غاية خلقها فقط ، بل هو ذكر لبعض منافعها ، التى يقتضيها المقام ، وذلك لظهور هذه الفائدة لهم ٠ فهم يهتدون بها فى أسفارهم المستمرة وسط الصحراء المتشابهة الدروب والمسالك ، وكذلك فى البحر الذى لا يحدد الاتجاه فيه سوى النجوم كمعالم ثابتة للجهات ٠

ويلاحظ ما فى التعبير من استعارة الظلمات للمتاهات والمسالك المتشابهة فى البر والبحر والاستعارة أبلغ حيث حاجة من فى الظلمة الى الضوء أشد ممن اشتبهت عليه السبل ٠ وما فى تقديم الجار والمجرور « لكم » على المفعول الصريح « النجوم » من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر ، فان السامع لقوله تعالى : « **جعل لكم** » يستشرف الى معرفة هذا الشىء الذى جعل له فاذا سمعه تمكن فى نفسه ٠ كما نشير الى التناسب بين البر والبحر ٠ وبين الفاصلة والآية ، فان الاهتداء بالنجوم فى ظلمات البر والبحر والاستدلال بها على الصانع الحكيم يحتاج الى قوم يعلمون حقا ٠

---

(١) انظر كتاب « الله يتجلى فى عصر العلم » مقال « نشأة العالم هل هى مصادفة أو قصد » لعالم الطبيعة فرانك الن ٠ حيث يفصل ملاءمة الأرض للحياة مثبتا ان ما عليه الكون من تقدير وحساب لا تصلح الحياة الا به ، ولو تغير منه شىء ولو يسيرا لانمحت الحياة ص ٥ ـ ١٠ ٠

« وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع ، قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون » بعد هذا التطواف فى ملكوت السموات والأرض تعود بنا الآيات الى مشهد آخر · وهو هنا النفس الانسانية ذاتها · كيف أنشأها الله ، وكيف خلق هذا السيل المتتابع من البشر منها ، وكيف جعل لكل نفس مستقرا فى أصلاب الرجال ومستودعا فى أرحام النساء ، أو مستقرا فوق الأرض ومستودعا تحتها بعد الموت · ولعمرى ان فى كل جزئية من تلك الأمور لأسرارا تحتاج فى تأملها الى أعمار ، وكلها ناطق بالقدرة القادرة ، ودليل جلى على الوحدانية والتفرد بالالوهية · وستبقى الآية الكريمة تدعو الانسانية الى ربها وتهديها اليه ، وكلما ازدادوا علما ازداد يقينهم واستسلامهم ·

ولنتأمل ما فى اختيار الألفاظ ، ووضع كل فى الموضع الذى لا يغنى فيه غيره وأول ذلك لفظ « **أنشأ** » ودلالته على بدء الخلق على غير مثال وهذا ما يناسب المقام ، و « **مستقر ومستودع** » واطلاق الأول على كون الانسان فى الأصلاب أو فوق الأرض لأنهما مقره الطبعى ، واطلاق المستودع على كونه فى الأرحام أو تحت الأرض بعد الموت لأن كليهما ليس بمقر طبعى بل هى مرحلة سينتقل بعدها الى الولادة والاستقرار على الأرض أو يبعث ويستقر فى دار الخلود · ثم التعبير فى الفاصلة هنا بـ « يفقهون » ، وعقب النجوم هناك بـ « يعلمون » ، ذلك لأن ما هنا من الانشاء من نفس واحدة والانتقال من مرحلة الى مرحلة والتنقل فى أحوال مختلفة فيه من دقة التدبير ولطائف صنع الله تعالى ما يحتاج فى ادراكه الى الفقه خاصة لا الى مجرد العلم · ففى الفقه ـ وهو استعمال الفطنة وتدقيق النظر والتعمق فى استكناه الحقائق ـ ما يجعله هو المناسب للمقام ·

« وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه ، انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه ، ان فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » ·

انتقال الى مشهد جديد يعرضه علينا القرآن الكريم لتأمله وتدبر دلالته على قدرته تعالى وسعة رحمته ، فالمشهد هنا يعرض علينا الوانا من نعم الله التى خلقها لتدبير أقواتنا وما به قوام حياتنا · فهو الذى أنزل من السماء ماء فجعل منه كل شىء حى وأخرج به أنواع النبات والشجر ، ثم يعرضها علينا فى شتى أطوارها وأشكالها ويدعونا الى النظر اليها نظر تفكير واعتبار ·

« **وهو الذى انزل من السماء ماء** » وكل انسان يدرك حاجة الحياة الى الماء ، فيه قوامها واستمرارها · وهو الأساس فى حياة جميع الأحياء · ولكن لماذا وجه نظرنا الى الماء النازل من السماء ؟ « من المعروف أن ماء المحيطات لا يصلح للارواء ولا للانبات ، وهنا يرينا الله قدرته العجيبة وآيته الكبرى ·

فينشىء فى طبقات الهواء معملا كونيا معدا للتقطير واستخلاص الماء العذب الزلال فتنطلق أشعة الشمس تبخر الماء من المحيطات ، ثم يرفع الهواء البخار الى طبقات الجو العليا ، ثم تحمله الرياح لتقطع عشرات أو مئات الأميال فيتكاثف السحاب فى طبقات الجو العليا أو يصطدم بقمم الجبال فيسقط أمطارا غزيرة تتكون منها الأنهار والجداول والوديان الحافلة بالماء العذب ، ثم تتدفق الأنهار عائدة الى المحيطات بعد أن ينال الانسان والحيوان والنبات حظه من الارتواء · ولكن المعمل الكونى الجبار يعيد عملية التبخير والامطار · واذا تعطل هذا المعمل الكونى ، فماذا يكون مصير الانسان ؟ (١) ·

ثم من ذا الذى يستطيع ذلك ، ومن دبره وقدره هذا التقدير المعجز ؟ انه الله ·· بهذا تنطق الفطرة ، ويهتف العقل ، ويعلنه القرآن الكريم ثم لنتأمل ما يلقيه المشهد فى الوجدان من احساس ببر الله تعالى وعنايته وعطفه علينا ، وما يستوجبه هذا من العرفان والتقرب اليه بالعبادة · ولا يخفى ما فى التعبير من استعمال « السماء » بمعنى السحاب على سبيل المجاز المرسل · والتعبير بالسماء أبلغ ، لما يوحى به من الكثرة والعموم ، وذلك هو المناسب لمقام الامتنان بكثرة النعم ، والتذكير بها ·

« **فأخرجنا به نبات كل شىء** » نعم هذه حقيقة ، فكل نبات يكون بذرة فى باطن الثمرة ، ثم يتصل بها الماء فتنبت خلاياها وتبدأ فى التكاثر آلاف المرات ، وتأخذ فى التخصيص ، فيمتد بعضها فى صورة جذر الى الأعماق ويتفرع الى شعيرات دقيقة تمتص ما يلزمها من عناصر لتغذيتها تستخلصها من التربة ، ويمتد بعضها فى صورة جذع الى أعلى فيشق أديم الأرض وتظهر الأوراق ويستمر النمو · ونلاحظ أسلوب الالتفات فى قوله تعالى · « **فأخرجنا** » حيث أسنده الى نون العظمة لكمال العناية بشأن ما أنزل الماء لأجله ·

---

(١) انظر فلسفة المعرفة فى القرآن الكريم ص ٢٦١ ـ ٢٦٣ ·

« **فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا** » شرع فى تفصيل ما أجمله من الاخراج وفى التفصيل بعد الاجمال تشويق للنفس وتأكيد للمعانى · وأول ما أشار اليه تلك الخضرة التى نراها فى كل نبات · وهى لمسة دالة على أهمية تلك الخضرة ودورها · ولقد توصل العلم الى الكشف عن هذا الدور ، وهو دور لا يقتصر على حياة النبات وحده بل يمتد تأثيره لايجاد توازن لا تقوم الحياة كلها الا به · فمن المعروف أن الأوراق تمتص أشعة الشمس فتحولها الى ما سماه القرآن الكريم « خضرا » ويسميه العلماء « الكلوروفل » وبه يمتص النبات « ثانى أوكسيد الكربون » من الجو مادام ضوء الشمس موجودا وهو عنصر هام فى بناء النبات ، ويخرج « الأكسوجين » وهو ضرورى لحياة الانسان وغيره من الأحياء فاذا غابت الشمس عكس الأمر فامتصت الأوراق « الأكسوجين » وأخرجت « ثانى أكسيد الكربون » · وهكذا يحدث التوازن الذى لا تمضى الحياة بدونه · فيالها من لمسة تلفت أنظارنا الى هذا السر العجيب ·· وأنى لمحمد عليه الصلاة والسلام فى بيئته الأمية أن يعرف ذلك ؟

ثم يستمر نمو النبات وينتهى أمره بتكوين الأزهار ثم الأثمار ومنها يتخذ الانسان الغذاء والملبس والمأوى ·

ويلاحظ ما فى النظم من تقديم الجار والمجرور « منه » على المفعول الصريح « خضرا » للتشويق الى المؤخر · كما يلاحظ وصف الحب بأنه متراكب ، وما فيه من لفت الأنظار الى صورته الجميلة المعجبة ·

« **ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه** » تفصيل لأحوال الشجر ، فالطلع يخرج من النخل ومنه يكون القنوان ، جمع قنو وهو عنقود النخلة ، كما يخرج بالماء جنات من أعناب والزيتون والرمان بعضه متشابه وبعضه غير متشابه · ولنتأمل النظم الكريم وما به من لمسات موحية ··

« **قنوان دانية** » المراد قريبة من القاطف سهلة المجتنى ، ويلاحظ اقتصاره عليها لدلالتها على مقابلها ، ولما فيها من يسر فى الانتفاع بقربها من القاطف · وهو المناسب لمقام التذكير بالنعم · « **وجنات من أعناب** » ويلاحظ اختصاص الأعناب دون غيرها من الأجناس الأخرى بذكر جنات

معها دون الاكتفاء بذكر الجنس كما فى الأجناس الأخرى · ولعل ذلك لأن الانتفاع بهذا الجنس لا يتأتى غالبا الا عند اجتماع طائفة من أفراده (١) ·

« **والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه** » ويلاحظ ما فى التعبير من نصبهما على الاختصاص للاشارة الى عزة هذين الصنفين ، كما يلاحظ ما فيه من ايجاز فقد اكتفى بذكر الحال الخاصة بالزيتون عن ذكر الحال الخاصة بالرمان ، لدلالته عليه والمعنى : الزيتون مشتبها وغير متشابه والرمان كذلك ويجوز العكس بجعل الحال المذكورة من الرمان والمحذوف حال الزيتون · **اما قوله تعالى : « مشتبها وغير متشابه »** فهى لمسة تلفت عقولنا الى دلالتها على القدرة المبدعة ، فاننا نرى الشجرتين تتفقان فى الجنس وتسقيان بماء واحد وتنبتان فى أرض واحدة ومع ذلك نجد التفاوت بين ثمرهما فى اللون والحجم والطعم ، فكيف يحدث ذلك ؟ وأى سر فى تلك الشجرة يؤدى الى هذا الاختلاف والتمايز ؟ انها القدرة القادرة والتدبير المعجز ··

« **انظروا الى ثمره اذا اثمر وينعه** » دعوة للتأمل والنظر بعين الاعتبار والاستبصار ، والمراد بالينع هو بلوغ الثمرة نضجها ، وأنها لعبرة لمن يعتبر سواء فى ذلك تدرجها من الصغر واكتمالها شيئا فشيئا حتى تكون صالحة للانتفاع بها · أو مظهرها البديع المعجب الذى يرضى النفس ويلمس الوجدان ·

« **ان فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون** » اشارة الى ما أمر الله بالنظر اليه فان فيه آيات شاهدة على وجود القادر ووحدانيته ، فان حدوثها من أصل واحد وتشعبها الى أجناس متعددة ، وتطورها من حال الى حال لا يمكن أن يتم الا بقدرة صانع حكيم لا يشاركه فى صنعه أحد ، وهذا يعمق الايمان ويؤكد اليقين · ولهذا كانت الفاصلة « **لقوم يؤمنون** » · أى أن هذه الآيات الظاهرة لا ينتفع بها الا أصحاب القلوب المتفتحة المتصلة بالله ، المؤمنة به ، أما أصحاب القلوب المغلقة فانها تمر عليها دون أن تحرك بها ساكنا أو تستجيب لما ترشد اليه · ويلاحظ التأكيد بأن واللام وكذلك تقديم الجار والمجرور فى « ذلكم » وما يوحى به اللام من بعد منزلة الآيات وكل ذلك يوحى بمزيد من الاهتمام والعناية ·

---

(١) انظر تفسير أبى السعود جـ ٢ ص ١٢٣ ·

« **وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم ، وخرقوا له بنين وبنات بغير علم ، سبحانه وتعالى عما يصفون** » · مع كل هذه الآيات البينات على وحدانية الله تعالى ، أيليق بعاقل أن يتخذ له شريكا ؟ انهم يجعلون لله شركاء ، ومن هم ؟ الجن ، مع أن الله هو خالق الجن ، فهل يمكن أن يكون المخلوق شريكا لخالقه فى الألوهية واستحقاق العبادة ؟ وافتروا أيضا بلا دليل من عقل أو شرع أن له بنين وبنات · ولنتأمل النظم الكريم ·

وأول ذلك تقديم الشركاء على الجن والسر فى هذا كما يقول عبد القاهر: « ان لتقديم الشركاء حسنا وروعة ومأخذا من القلوب · أنت لا تجد شيئا منه ان أنت أخرت فقلت : « وجعلوا الجن شركاء لله » ·· والسبب فى هذا هو أن للتقديم فائدة شريفة لا سبيل اليها مع التأخير ، لأنه اذا كان محصول المعنى أنهم جعلوا الجن شركاء وعبدوهم مع الله ، وكان هذا المعنى يحصل مع التأخير حصوله مع التقديم ، فان تقديم الشركاء يفيد هذا المعنى ويفيد معه معنى آخر ، وهو أنه ما كان ينبغى ان يكون لله شريك لا من الجن ولا من غير الجن ، فاذا أخر فقيل : « وجعلوا الجن شركاء » لم يفد ذلك · ولم يكن فيه أكثر من الاخبار عنهم بأنهم عبدوا الجن مع الله تعالى ·· وذلك أن التقدير يكون مع التقديم أن « شركاء » مفعول أول لجعل و « لله » فى موضع المفعول الثانى · ويكون « الجن » على كلام ثان وعلى تقدير أنه كائنا قيل : فمن جعلوا شركاء لله تعالى ؟ فقيل : الجن · واذا كان التقدير فى « شركاء » انه مفعول أول · و « لله » فى موضع المفعول الثانى وقع الانكار على كون شركاء لله تعالى على الاطلاق من غير اختصاص شىء دون شىء ، وحصل من ذلك ان اتخاذ الشركاء من غير الجن قد دخل فى الانكار دخول اتخاذه من الجن ، لأن الصفة اذا ذكرت غير مجراة على شىء كان الذى يعلق بها من النفى عاما فى كل ما يجوز أن تكون له تلك الصفة (١) ·

« **وخلقهم** » الضمير يعود على الشركاء · والجملة حال منهم أى والحال أن الله قد خلقهم ، فكيف يجعلون مخلوقه شريكا له ؟ · وهكذا يرد عليهم القرآن بلفظة واحدة · وهذا ايجاز معجز ··

« **وخرقوا له بنين وبنات** » خرقوا أى افتعلوا وافتروا ، ولكن التعبير بالخرق فيه جرس خاص يرسم مشهد الطلوع بالقرية التى تخرق وتشق (٢) ·

---

(١) انظر دلائل الاعجاز ص ٢٢١ ـ ١٢٢ ·

(٢) فى ظلال القرآن جـ ٢ ص ١١٦٢ ·

« **بغير علم** » فهو ادعاء لا سند له ومن ثم لا يصح أن يقوم على أساسه عقيدة · والمقصود بالجن الملائكة سموا به لاجتنانهم · وقيل الشياطين اشارة الى من كانوا يزعمون أن كل خير ، خلقه الله ، وكل شر ، خلقه الشيطان وهو رأى الثنوية (١) · أما البنات والبنون فالمعنى به ادعاء اليهود بأن عزيرا ابن الله وقول النصارى المسيح ابن الله ، وما كانت تزعمه العرب بأن الملائكة بنات الله ·

« **سبحانه وتعالى عما يصفون** » تنزه وبعد عما يصفون به ، تأكيد لوحدانيته تعالى وتنزيه له **عما يزعمون** ·

« **بديع السموات والأرض ، أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ، وخلق كل شيء ، وهو بكل شيء عليم · ذلكم الله ربكم ، لا اله الا هو ، خالق كل شيء فاعبدوه ، وهو على كل شيء وكيل · لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير** » ·

« **بديع السموات والأرض** » معناه أنه تعالى مبدع السموات والأرض ومخترعهما على غير مثال يحتذيه · فاختيار لفظ « **بديع** » دون ما يؤدى معنى الخلق للدلالة على معنى الاختراع والابتكار دون قياس على شيء · وقيل انه من اضافة الصفة المشبهة الى الفاعل تشبيها لها باسم الفاعل والمعنى : بديع سماواته وأرضه من بدع اذا كان على نمط عجيب وشكل فائق ، وحسن رائق (٢) · والأول أولى لقوته فى الاستدلال على الوحدانية ·

« **أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة** » · لقد كان العرب لا يدعون أن له صاحبة ، وهذا أمر مسلم لديهم · فاعتمد على ما يسلمون به فى نفى أن يكون له ولد فان قانون التناسل أن ينشأ الولد من أب وأم ، وقد يوجد بلا أب ولكن لا يمكن أن يوجد بلا أم ، وأنتم تسلمون بأنه تعالى ايس له صاحبة فكيف يكون له ولد ؟ فالاستفهام هنا انكارى بمعنى « كيف » لتسفيههم وبيان خطلهم ·

« **وخلق كل شيء ، وهو بكل شيء عليم** » نفى للولد بطريقة أخرى وهى أنه تعالى خلق كل شيء ، ومما خلقه ، ما سموه ولدا ، فكيف يتصور أن يكون المخلوق ولدا لخالقه · ثم ان الله عليم بكل شيء من شأنه أن يعلم ،

---

(١) الثنوية : ديانة فارسية قديمة صاحبها « زرادشت » تقوم على أساس أن للعالم الهين : اله للخير واله للشر · انظر الفلسفة الاسلامية وصلتها بالفلسفة اليونانية ص ١٣٩ ـ ١٤٠ ·

(٢) انظر تفسير أبى السعود ج ٢ ص ١٢٤ ·

مما كان أو سيكون أزلا وأبدا ، وأنتم لا علم لكم ، بل انها ظنون وأوهام تلك التى تدعونها ولا يقوم عليها دليل ·

« وفيما تقدم ابطال للولد من ثلاثة أوجه :

احدها « أن مبدع السموات والأرض ـ وهى أجسام ـ لا يستقيم أن يوصف بالولادة · لأن الولادة من صفات الأجسام ·

ومخترع الأجسام لا يكون جسما ·

والثانى ، أن الولادة لا تكون الا بين زوجين من جنس واحد ، وهو متعال عن المجالس ، فلم يصح ان تكون له صاحبة · فلم تصح الولادة ·

الثالث ، أنه ما من شىء الا هو خالقه والعالم به · ومن كان بهذه الصفة كان غنيا عن كل شىء والولد انما يطلبه المحتاج » (١) ·

« **ذلكم الله ربكم ، لا اله الا هو ، خالق كل شىء فاعبدوه** » ·

« **ذلكم** » اشارة الى المتصف بما سبق من الصفات · ويلاحظ ما فيه من معنى البعد للتنبيه على علو شأنه سبحانه · ثم يخبر عنه بأخبار أربعة : « **الله ربكم ، لا اله الا هو ، خالق كل شىء** » · وكلها توجب له الوحدانية والتفرد بالعبادة ولهذا رتبها عليها فقال : فاعبده · ولا يخفى ما فى تعدد الاخبار من تأكيد لاستحقاق سبحانه العبادة ، ووجوب تفرده بها ·

« **وهو على كل شىء وكيل** » أى متولى أمور جميع مخلوقاته وانتم منها من شأنه ذلك يتقرب اليه بالعبادة والطاعة لانجاح المآرب وتحقيق الآمال ويلاحظ ما فيه من ترغيب واستمالة لقلوبهم ·

« **لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير** » وصف لله تعالى يؤكد تعاليه سبحانه عما يشركون ، فانه ليس كمثله شىء ـ سبحانه ـ فهو لا تدركه الأبصار · والأبصار جمع بصر وهو حاسة النظر ، وقد يطلق على العين مجازا لأنها محل الحاسة · والحواس البشرية لكل منها طاقة لا تتجاوزها ، وقد زود بها الانسان وقدرت طاقاتها لادراك آثار الوجود الالهى فى الكون · وتدبير حياته بالانتفاع بما فى الكون من أسباب الحياة وادراك العبرة الهادية الى الله · هذا هو مداها ومجالها · أما ذاته تعالى فانها لم تزود بما يمكنها من ادراكها ، فهو ليس كمثله شىء ، فلا تدركه الأبصار · أما هو سبحانه فهو خبير بكل شىء يحيط علمه بكل شىء ،

---

(١) الكشاف ج ٢ ص ٤١ ·

فادراكه سبحانه للأشياء كناية عن احاطة علمه بها ، بالكيفية التى يعلمها هو سبحانه ·

« **وهو اللطيف الخبير** » تعليل للحكمين السابقين على طريقة اللف والنشر · والمعنى : لا تحركه الأبصار لأنه اللطيف · وهو يدرك الأبصار لأنه الخبير · وفى ذلك تأكيد للمعنى بذكر سببه علته · والمقام يقتضى ذلك لغرابة الحكم ، وواضح ما فى التعبير أيضا من تعريف للمسند اليه بلام الجنس المفيد للقصر تأكيدا للصفة وتقريرا لها ·

وبعد ·· فهذا هو النص الكريم يطوف بنا فى ملكوت السموات والأرض ، يعرض آياتها وبدائعها وكل شاهدة على وحدانيته سبحانه هادية الى الحق لمن اخلص النية واستجاب لما تمليه الفطرة وتهدى اليه العقول · بالاضافة الى ما فيه من ألوان بلاغية دعا اليها المقام وكست الأسلوب اعجازا وجمالا يستهوى الأفئدة ويأخذ بمجامع القلوب ·

هذا ·· وقد رأينا تعدد الأساليب القرآنية فى الدعوة الى الوحدانية بما جعل من هذه الأساليب علاجا للانسانية فى مستوياتها المختلفة « واذا كان علماء النفس والاجتماع ومن وكل اليهم توجيه الجماهير يقررون أن الناس مختلفون فى مستوياتهم العقلية والوجدانية والعاطفية ، وأن ذلك يتطلب اختلاف الوسيلة عند مخاطبتهم ، أو محاولة جذبهم الى مبدأ أو فكرة فان الاسلام قد سبقهم فى تقرير ذلك وفى تطبيقه » (١) فمن ترهيب للمتغطرسين الذين يصرون على المكابرة على الرغم من ظهور الدليل · الى ترغيب تستمال به أكثر القلوب التى تريد ثمنا لكل تصرف يحدث منهم · الى جدل يسوق المقدمات وينطق بالنتيجة أو يطالب السامع باستنتاجها · ويزيل الشبهة التى أدت الى اختلاط الأمر ، وهو أسلوب صالح لأرباب الثقافة ومن عندهم قدرة على التمييز والفهم ، الى أسلوب تلقينى يسوق الحق جليا واضحا ، يخاطب به الجماهير التى لا نصيب لها من ثقافة تمكنها من أن تزن الأمور وتفهم الأدلة · وبهذا التعدد فى الأساليب كان القرآن قمة فى رعاية ما يقتضيه حال المدعوين ، بالاضافة الى ما فى صياغة هذه الأساليب وما تضمنته من ألوان بلاغية تمثلت فى اختيار ألفاظها وخصائص نظمها وتفاوت ألوان التعبير فيها بين حقيقية ومجازية مما لمسناه فى عرضنا للنصوص · وبهذا كله كان القرآن الكريم معجزا ببلاغته متفردا فى سحره وتأثيره ·

★★★

(١) انظر الانسان فى القرآن الكريم ص ٢٥٣ ·